

رحلتي من السنة الى الشيعة

الكاتب المصري صالح الوردانى

دار النخيل

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م – ١٤١٦ هـ .

دار النخيل للطباعة والنشر
بيروت – شوران – ٦١١٣ /١١٣



هوية الكتاب

الكتاب : الخدعة رحلتي من السنة الى الشيعة

المولف : صالح الورداني

الناشر : موسسة عاشوراء

المطبعة : توحيد

عدد النسخ : ٣٠٠٠

السنة : ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م

السعر : ٥٠٠ تومان

المقدمة

كان البحث عن حقيقة الإسلام وسط ركام من الأقوال والفتاوى والأحاديث وأحداث التاريخ أمرا شاقا وعسيرا. فمنذ أن توفي الرسول (ص) وحتى اليوم علقت بالإسلام الكثير والكثير من الشوائب التي غطت على معالمه وموهت على حقيقته وقضت على ملامحه حتى أنه تحول إلى إسلام آخر غير ذاك الإسلام الذي ورثه الرسول للأمة. وبدأ وكأن الأمر يحتاج إلى رسول جديد لبعث الإسلام مرة أخرى.

هذا ما توصلت إليه من خلال بحثي وقراءاتي وتجاربي الطويلة في دائرة الواقع الإسلامي بمصر والتي استمرت أكثر من عشرين عاما.

إن ما عايشته وواجهته من قبل التيارات الإسلامية في مصر كان الدافع الأول والأساس الذي أدى بي للغوص من التراث الإسلامي المصدر الأساس لهذه التيارات كمحاولة للوصول إلى الخلل الذي أوجد التناحر والتكاثر بين هذه التيارات.

لم أجد هذا الخلل من الحاضر بل وجدته من الماضي.

وأعترف أن البحث عن هذا الخلل يتطلب شرطا أساسيا لم يكن متوافرا من بداية ألا وهو التجرد من قدسية الأشخاص أي وجود الشخصية الفكرية المستقلة المتحررة من عبادة الرجال. فقد كنت أغوص في التراث وأنا أحمل بين جنبي رهبة وقدسية لرموز السلف بداية من الصحابة ونهاية بالفقهاء.

لكنني عندما تحررت من وهم القداسة بفضل الله وعونه - وجدت الطريق مفتوحا أمامي للوصول إلى حقيقة الإسلام. واكتشفت أن هذا الدين قد تحققت فيه سنة الأولين التي تمتثل في طغيان الرجال على النصوص من بعد الرسول بحيث تصح الأمة تتلقى دينها من الرجال لا من النصوص التي ورثها الرسول مما يؤدي في النهاية إلى ضياع حقيقة الإسلام كما ضاعت من قبل حقيقة دين موسى وعيسى (عليهما السلام)، على يد أحبار ورهبان بني إسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**﴾.

عندما بدأت أتتبع النصوص وأحداث التاريخ بمعزل عن الرجال. أو بمعنى أدق عندما وضعت النصوص فوق الرجال عرفت الحق.

لقد طبقت القاعدة التي ذكرها الشاطبي في كتابه الاعتصام عن الحق والرجال. هل يعرف الرجال بالحق. أم يعرف الحق بالرجال؟.

وإن كان الفقهاء قد أجمعوا أن الرجال يعرفون بالحق إلا أن هذه القاعدة في الحقيقة لا وجود لا من واقعهم وتراثهم. فهم قد رفعوها شعارا لهم في الظاهر وفي الحقيقة طبقوا عكسها ولقد كان أمر التفريق بين النص والرجال ومحاولة فهم النص بمعزل عنهم هو الذي أوصلني لحقيقة الإسلام. وما كان لي أن أصل لهذه الحقيقة لو التزمت باعتماد أقوالهم وتفسيراتهم للنصوص. هذه الأقوال والتفسيرات التي تفوح منها رائحة السياسة في الغالب لقد اكتشفت الحقيقة وخرجت من دائرة الوهم إلى دائرة الحقيقة عندما تتبعت مسيرة الإسلام من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وأعدت قراءته من جديد.

واستراحت نفسي من بعد سنوات طويلة من التيه والحيرة عندما وقع بصري على الطرف المغيب من تأريخ الإسلام وواقع المسلمين واستقرت قدماي على الطريق.

وتبددت الغشاوة فور أن سطع أمامي نور آل البيت وظهرت لي معالم الصراط المستقيم وتيقنت أنني على طريق الإسلام الصحيح.

وما خططته من هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية أو تجارب شخصية بقدر ما هو عرض لواقع وتفنيد لحجج وكشف لحقائق غائبة عن المسلمين.

والحمد لله الذي هدانا لهذا أو ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

صالح الورداني - القاهرة.

في العاشر من جمادي الآخرة عام ١٤١٥ هـ

العنوان البريدي.

ص. ب: ١٦٣ / ١١٧٩٤.

رمسيس - القاهرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسرح فكري يستمد أضواءه وقبساته من العقيدة، لأنها القاعدة التي يبتني عليها الفكر، وبناء بلا قاعدة رصينة لا ريب صائر إلى زوال.. والثقافات المنتشرة على ربوع المعمورة مهما تعددت مناحيها وتشعبت اتجاهاتها فإنها لا بد وأن تعود لجذورها العقدية.. فتتضاءل لتنحصر في كلياتها وأصولها.. والصراع عقدي بين الثقافات قبل أن يكون فكريا وثقافيا..

أننا حينما نرى استبسالا من بعض المجاميع لتكوين العلاقة الودية بين الحاكم والمحكوم وتأييدها باسم الانفتاح والعقلنة وإشاعة الإيجابية في دائرة الوسط الحركي والجماهيري وإلى ما هنا لك من المصطلحات والمسميات ففي الواقع أن هذه العناوين ترجع إلى فكرة محورية وهي الحاكمية.. وكذلك حينما نشاهد هجوما مستميتا على الحاكم لأنه مستبد وأن العقل لا يؤيد علاقة كهذه فإن فكرة الحاكمية عند أمثال هؤلاء مرفوضة.. فالصراع محوري وعميق..

إن الثقافة ليس بمقدورها أن تنهض لتشكيل جماعات دينية متماسكة وفعالة لولا اللبنات العقدية، الثقافة تظل عاجزة عن اغتيال أنور السادات لعدم تمكنها من صنع رجل كخالد الإسلامبولي، نعم العقيدة وفتوى ابن تيمية هي التي دفعتة لإطلاق النار..

الثقافة تولد مثقفين ليس أكثر بينما تصهر العقائد البشر وتجعلهم رهن الانقياد ولو أدى ذلك للموت.. فخالد ليس رجلا حركيا أملت عليه ثقافته أن يغتال خصمه بل العقيدة دفعته وثقافته للمواجهة..

وبلد كمصر تتجاذب فيه الصراعات، وتمتد على مساحته الحركات الدينية لتنبثق إشعاعاتها لكثير من الدول العربية والإسلامية يجدر بنا أن ننطلق – لنفهم الحقيقة – من الظاهر إلى الجوهر، من الثقافة إلى العقيدة، ستتألف لدينا قهرا علاقة جدلية بين الحاضر والماضي، نرحل للماضي ونسبر أغواره لنصل إلى العقيدة التي تضخ أفكارها بأشكال وتصاوير ثقافية ثم نرتد للحاضر لفهم أعمق للظواهر المتألقة في سماء الفكر..

إننا اعتدنا في البحوث العقائدية أن نبدأ مع بدء الزمن، زمن الرسالة ثم خلافة الخلفاء فالدولة الأموية فالعباسية لكن المذاق هذه المرة جديد، سننطلق من النتائج إلى الأسباب، من الحاضر إلى الماضي، سيكون البحث تطبيقا وملموسا...

وحينما تتأصل الأفكار وتعود للبناتها الأولى يتحقق الغرض المطلوب إذ سنخرج بين زمنية هذه الأفكار إلى أبدية العقائد.. وبتعبير أوضح إننا ههنا لا نناقش ثقافات فإنها مرنة فلربما يتنازل الخصم عن بعض ثقافته لكن يبقى على موقفه، لا يتبدل الموقف حتى يتغير الاتجاه، والاتجاه رهن العقيدة فهي تحدد الموقف، ونحن نناقشها فهي العمود الفقري للتوجهات الزمنية

العقيدة تجاري الزمن طالما كان هذا الأخير موجودا بخلاف الثقافة التي قد تتغير مع مرور الأجيال. وبذلك فإن النقاش العقدي مصيري يكون رؤية الإنسان الفلسفية للحياة الدنيوية والأخروية ويحدد على ضوئه نمط العلاقة بينه وربه ورسوله وأئمته

والمهم كي يخرج المرء بنتيجة أن يكون صادقا مع نفسه لأن أي مؤثر خارجي أو داخلي سيقلب المعادلة رأسا على عقب..

إن التوجهات السياسية التي كان لها تأثيرها العميق في تمويه الحقائق وتبرير الوقائع وتغطيه وبعض الأحداث لتسخير التاريخ لصالحها - كما يوضح الكتاب - هي ذاتها موجدة في هذا العصر فلكي نصل لا بد أن نتحرر منها ومن جميع المؤثرات الخارجية.. كذلك النفس المؤثر الداخلي الأكبر نحذرها كيلا تحول بيننا والحقيقة التائهة في أروقة الزمن البائس.. وقد أكد القرآن الكريم على ذلك في قوله: ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم** ﴾.

الأوراق الصفراء والأقلام المأجورة لا تحتاج لمزيد تأمل وكثير تدقيق من أجل اكتشافها، وأن نظرة صادقة كفيلة لتقصي جميع أو أغلب الحقائق المزيفة أو المغطاة بين أسطر الكتب التاريخية..

وأخيرا وليس بآخر إن مثل هذه الكتب العقائدية لا تعني سوى تأكيد أواصر المحبة وتهيئة الطرق المعبدة للوصول لنتائج يبحث عنها كل المخلصين من أبناء أمتنا الإسلامية..
أننا في سجالاتنا العقائدية نتوخى الأمة الواحدة التي تقف على ركائز عقدية واضحة المعالم ليس عليها ضباب أو غيوم وهذه هي الوحدة التي نرومها.. وحدة حقيقية قائمة على أسس متينة وواضحة.

أقدم جزيل شكري للأخوة القائمين على دار النخيل لأنهم بتقديمهم هذه الكتب يرجون تقدما للأمة ووعيا ناضجا.. حفظهم الله جميعا ووفقهم لما فيه الخبر والصلاح.

أقدم شكري لهم ثانيا لإتاحة فرصة التقديم. ولمؤسسة عاشوراء التي قامت بطباعة الكتاب في إيران.

عبد الهادي سلمان

أول الطريق

أكثر من خمسة عشر عاما قضيتها في دائرة الحركة الإسلامية في مصر بداية من فترة السبعينات ونهاية بفترة الثمانينات.

ومن خلال هذه الفترة عايشت ظهور تيارات ونهاية تيارات. ونمو ظواهر ووقوع أحداث وبروز شخصيات واختفاء أخرى.

ولقد عايشت ذلك كله دون أن تحتويني فكرة أو تيار من التيارات السائدة في الوسط الإسلامي آنذاك لأنني كنت أحمل من رصيد الفكر والتجربة ما يؤهلني لأكون مستقلا عنها.

وكانت هناك محاولات كثيرة لاستقطابي من قبل تيار الأخوان وتيار التكفير وتيار الجهاد. إلا أنني كنت أفضل التعاون مع التيارات الإسلامية من الخارج على الرغم من كون هذا الأمر لم يكن يريح هذه التيارات. من هنا فقد حصرت تعاوني في حدود تيار الأخوان وتيار الجهاد فقط أما بقية التيارات الأخرى فقد كانت ترفض مبدأ التعاون.

وبالإضافة إلى معايشتي هذه التيارات. عايشت أيضا الأطروحة التي تتبناها والتي يتعبد بها الجميع. تلك الأطروحة التي كانت تعتمد على فقه الماضي ولا تعطي للحاضر أهميته المطلوبة.

ولم أكن مستريحا لممارسات هذه التيارات ومواقفها وتصوراتها. كما لم أكن مستريحا لأطروحة الماضي التي تتبناها وتقيم على أساسها تصوراتها ومناهجها..

وكنت دائم النقد لها.

ومثل هذا الموقف كان يشكل استفزازا كبيرا لهذه التيارات وقد أدى في النهاية إلى عزلي ومقاطعتي وصدور أحكام بالزندقة والزيغ والضلال علي.

صدر هذا الحكم وأنا لا أزال في دائرة الخط السني. وكان صدوره قد فرض علي عدة تساؤلات:

هل مثل هذا الحكم هو وليد التعصب؟.

وهل هو قائم على حجج شرعية؟.

وهل موقفي من أطروحتهم يعد خروجا على الإسلام؟.

ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة الشك التي قادتني في النهاية نحو خط آل البيت (ع) .

ـ تشريح الواقع

كان الواقع الإسلامي في مصر أوائل السبعينات تسيطر عليه الجمعيات الأهلية والطرق الصوفية وهما الخطان الباقيان من العهد الناصري. وكان كثير من الشباب الذين جذبتهم موجة التدين يلجأ إلى هذه الجمعيات ويمارس نشاطه من خلالها فلم تكن الطرق الصوفية تشكل جاذبية له (١) .

ومن بين الجمعيات التي جذبت القطاع الأكبر من الشباب المسلم آنذاك جماعة أنصار السنة المحمدية والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية. إلا أن جاذبية الأولى كانت أكبر بسبب تبنيها فكرة الحاكمية والتوحيد بينما كانت الثانية تركز على العبادات ولا تهتم بالسياسة ولها ميول صوفية وإن كانت هي الأكثر انتشارا في الشارع المصري ومساجدها تفوق مساجد الدولة (٢) .

وجماعة أنصار السنة هي التي قامت بالدور الرئيسي في نقل الفكر الوهابي إلى صفوف الشباب حيث تبنت هذه الجماعة الطرح الوهابي منذ نشأتها في أواخر العشرينات (٣) .

وعندما أصدر السادات قراره بتفريغ المعتقلات. خرجت منه ثلاثة تيارات انتقلت على الفور إلى ساحة الواقع وأخذت مكانها فيها. وهذه التيارات هي تيار

الأخوان وتيار التكفير والتيار القطبي. وتمكن الأخوان من استقطاب القطاع الأكبر من الشباب ومن طلبة الجامعات الذين كانوا يمارسون نشاطهم الإسلامي داخل محيط الجامعة تحت اسم الجماعة الدينية التي تحولت فيما بعد إلى اسم الجماعة الإسلامية وأصبحت تحت سيطرة الأخوان حتى أواخر السبعينات (٤).

واستطاع تيار التكفير أن يشكل جاذبية كبيرة للشباب ويستقطب الكثير منهم وأصبح ينافس الأخوان داخل الجامعة وخارجها إلا أنه بدأ في التراجع بعد حادثة مصرع الشيخ الذهبي (٥).

أما التيار القطبي فقد التزم السرية ولم تجد أطروحته ذلك الرواج الذي وجدته أطروحة الأخوان وأطروحة التكفير حتى تم ضربه في إطار الضربة الشاملة التي وجهت للحركة الإسلامية عام ١٩٨١ م (٦) وبالإضافة إلى هذه التيارات الثلاثة برز تيار رابع تفرخ من خلال الفكر الوهابي الذي كانت تبثه جماعة أنصار السنة ومن خلال حركة الغزو الفكري الخارجي الذي كان يعتمد على عدد من دور النشر المصرية التي كانت تقوم بطبع ونشر كتب ابن تيمية وابن عبد الوهاب...

وتوزيعها مجانا على طلبة الجامعات والشباب المسلم في جميع أنحاء مصر. وهذا التيار اصطدم بهذه التيارات الثلاثة ونابذها العداء (٧).

وفي عام ١٩٧٤ م برزت أول طليعة جهادية في مصر بقيادة صالح سرية واصطدمت بنظام الحكم فيما عرف بحركة الفنية العسكرية. وكانت تلك الحركة هي النبتة التي نما على أساسها تيار الجهاد (٨).

وفي وسط هذه التيارات كان هناك التيار الإسلامي الحكومي المتمثل في الأزهر والأوقاف. وكان هذا التيار قد نبذ من الجميع وعجز عن اختراق صفوف الشباب مما دفع السادات إلى الاعتماد على الأخوان لمواجهة التيارات الإسلامية المتشددة والتيارات السياسية الأخرى التي تناصبه العداء (٩).

وقد احتدم الصراع بين هذه التيارات واشتدت الخلافات وكثرت المنازعات وتكررت الصدامات بين أفراد هذه التيارات داخل محيط الجامعة وخارجها.

وكان كثيرا ما يعتدي أفراد التيار السلفي والتيار الجهادي على عناصر الأخوان. ثم تطور الأمر وأصبح تيار التكفير يعتدي على المخالفين له والمنشقين

عنه. وذلك غير الصدامات التي كانت تقع بين عناصر التيار الناصري والتيار الماركسي وعناصر التيار الإسلامي داخل الجامعة المصرية

التيار الناصري والتيار الماركسي كانا يتهمان التيار الإسلامي بالعمالة للحكومة.

والتيار الإسلامي كان يتهمهما بالكفر والإلحاد..

وبالنسبة لي فإن موقعي بين هذه التيارات كان متميزا إلى حد كبير حيث أنني كنت من المستقلين ولي نشاطي الخاص بي وطرحي المختلف عن طرحهم. وكنت أعطي للعقل مكانه وأتيح له القيام بدوره فمن ثم كنت أتميز بالمرونة والتجاوب مع المتغيرات والارتباط بالواقع..

وكانت لي جولاتي المختلفة بين مدن وقرى مصر شمالا وجنوبا. أخطب في مساجدها وألتقي بشبابها وأتحاور مع تياراتها. وكنت وقتها على هيئة القوم مطلقا لحيتي ومرتديا الجلباب التقصير.

إلا أن حواراتي ومناقشاتي مع هذه التيارات لم تأت بنتيجة. فقد كان القوم يرفضون العقل ولا يتيحون لأحد فرصة للخروج عن خط الماضي ونقد رجاله..

والتيار الوحيد الذي خاض في الماضي ونقد رجاله هو تيار التكفير الذي كان يرفض أية مقولة تصطدم بالنصوص حتى أنه تجرأ على عمر وهاجمه بسبب اجتهاده على النصوص. غير أن هذا التيار قد أخضع هذا النقد لنظريته وطرحه فقط سيرا مع القاعدة التي كان ينادي بها وهي من قلد كفر.. وهذه القاعدة كان لها دورها البارز في تحري عناصره من التقيد بالماضي واتباع رموزه. كما كان لها دورها في لفت نظري إلى قضية النص والرجال والتي كان لها دورها في دفعي نحو خط آل البيت (١٠) .

ـ الأخلاق ـــــــــــــــــــــــــــــ

كانت التيارات الإسلامية. وباستثناء تيار الأخوان – يقودها شباب لا خبرة لهم ولا علم. وتكاد تنحصر محصلته العلمية في محيط كتب معدودة محدودة بحدود الفكر الوهابي.

والملفت للنظر أن هؤلاء الشباب كما تبنوا الطرح الوهابي تبنوا أيضا الخلق الوهابي والذي يتمثل في الغلظة والتعصب واستحلال الخصوم.

فمن ثم فإن الصدامات التي كانت تقع بين هذه التيارات وبعضها كانت تتجاوز حدود الأخلاق بصورة تجعل المشاهد يحكم على أن هذا الصراع إنما هو بين فرقتين جاهليتين لا صلة لهما بالإسلام وعند ما كنت رهن الاعتقال في الفترة من عام ١٩٨١ م – ١٩٨٤ م لم أستطع تحمل خلافات عناصر هذه التيارات وسلوكياتها المنحطة ومعاركها التي لا تنتهي. مما دفعني إلى الاستقلال عنهم في حجرة وحدي تارة ومع العناصر الجنائية المحكوم عليها في قضايا إجرامية تارة أخرى (١١).

ومع الأسف كنت أجد راحتي وسط هؤلاء ولم أكن أجدها وسط عناصر التيارات الإسلامية مما دفع بهم إلى النقمة علي خاصة أنهم كانوا ينظرون إلى هؤلاء المساجين نظرة ازدراء واحتقار نابعة من عقيدة الاستعلاء على الجماهير التي يعتنقونها.

ولقد كانت عقدة الاستعلاء هذه من أخطر الأمور التي أدت إلى عزل الحركة الإسلامية عن الجماهير وعن الواقع بأكمله. فالهوة التي تفصل بين التيارات الإسلامية والجماهير في مصر إنما يعود سببها لهذه العقد...

وما كان يراه هؤلاء المساجين من العناصر الإسلامية داخل المعتقل من معاملة جافة وقاسية وما كانوا يرونه من سلوكياتهم المعوجة قد دفع بهم إلى الكفر بهذه العناصر وتياراتها وباعد بينهم وبين الإسلام. فقد كنت استيقظ وكذلك السجن بأكمله كل صباح على صوت المعارك الضارية بين أنصار عمر عبد الرحمن وأنصار عبود الزمر. الأول يتعصب له أبناء الصعيد والثاني يتعصب له أبناء الوجه البحري. تلك المعارك التي كانت تستخدم فيها كل الأدوات الممكنة والمتاحة من قطع الأخشاب التي كانوا ينتزعونها من شبابيك الغرف إلى المواسير التي كانوا ينتزعونها من دورات المياه. بالإضافة إلى استخدام أقبح الألفاظ (١٢).

وإذا كان هذا السلوك يحدث بين أبناء التيار الواحد وهو تيار الجهاد. فماذا من الممكن أن يحدث بين عناصر التيارات المختلفة..؟.

إن مثل هذه الحوادث كانت تدفع بي إلى التساؤل: هل مثل هذه المواقف يعود

سببها إلى الأخلاق وحدها..؟.

لقد تبين لي بعد فترة تأمل أن المسألة ليست مسألة أخلاق وإنما هناك دوافع فكرية وعقائدية تقف من وراء هذا الخلق السئ. دوافع تنبع من الأطروحة التي تتبناها هذه التيارات وتبرر لهذه العناصر مثل هذه الخلق.

وأثناء قراءاتي التأريخية لفتت نظري ظاهرة الخوارج ومواقفهم وصفاتهم. وكم كانت دهشتي عندما تبين لي أن مواقف وصفات هؤلاء العناصر وأخلاقهم هي نفس مواقف وصفات وأخلاق الخوارج الذين وردت النصوص بذمهم وتحذير الأمة منهم (١٣) ...

والخوارج إنما كان تصورهم وأطروحتهم هي التي تبرز لهم هذا الخلق والسلوك السئ المعوج. وكذلك عناصر هذه التيارات.

والخوارج إنما كانوا يتميزون بالغلظة وقسوة القلوب وهذه صفة عناصر هذه التيارات. والخوارج إنما كانت سيوفهم مسلطة على المسلمين يستحلون دماءهم وأموالهم. كذلك عناصر هذه التيارات.

وتفسير هذه الظاهرة على هذا النحو إنما يؤكده التيار الوهابي الذي ارتوت منه هذه التيارات فالتيار الوهابي قام على أكتاف قوم غلاظ متحجرين أورثوا الغلظة والتحجر لاتباعهم فكانوا بهذا نموذجا معاصرا للخوارج الذين انشقوا عن الإمام علي...

والتيار الوهابي يحكم بالشرك والاستحلال على المخالفين له من المسلمين وقد أورث التيارات الإسلامية هذه النزعة.

والتيار الوهابي يعتقد أنه رافع راية التوحيد وممثل الإسلام في الأرض وقد أورث التيارات الإسلامية هذا الاعتقاد الذي نبعت منه عقدة الاستعلاء.

وهكذا كانت الأخلاق أحد العوامل التي دفعت بي إلى إعادة النظر في أطروحة التيارات الإسلامية وكانت واحدة من المنبهات التي نبهتني إلى أنني لا أسير في الطريق الصحيح...

ـ رحلات بين العراق والكويت

كانت لي علاقات كثيرة بالطلبة العرب المقيمين في مصر لغرض الدراسة وكان من بينهم عدد من الشيعة العراقيين. وقد سببت لي هذه العلاقات الكثير من الحرج في الوسط الإسلامي إذ سرت الشائعات تقول أنني أقوم بدور الوساطة بين العناصر الشيعية وعائلات مصرية بغرض تطبيق زواج المتعة.

ولم تكن تعنيني تلك الشائعات على الرغم مما ترتب عليها من الوقيعة بيني وبين كثير من الإسلاميين فقد استفدت كثيرا من تلك العلاقات في التعرف على فكر الشيعة عن قرب وأمكن لي أن أقوم برحلة إلى العراق بدعوة من صديق لي تعرفت عليه في مصر وكان على درجة كبيرة من الثقافة ويقوم بتحضير دراسات عليا في القاهرة وذلك عام ١٩٧٧ م وهو الدكتور علي القرش (١٤).

وفي العراق استضافتني عائلته مدة طويلة استمرت أكثر من عشرين يوما وكانت عائلة شيعية كريمة تتكون من أب وأم وثلاثة أشقاء غير صديقي. وكان والد صديقي كثيرا ما يؤمنا في الصلاة بحديقة المنزل حيث كنا نسجد على الحشائش وقد زارني بعض الأخوة من مصر ممن يتحلون بالمرونة وصلوا معنا..

ووالد صديقي هذا كان شخصية ظريفة بها دعابة ويقوم بعرض الخلاف بين السنة والشيعة بصورة مبسطة ومضحكة أحيانا...

ومن خلال تواجدي بالعراق قمت بزيارة مراقد آل البيت ببغداد والطواف على مساجد الشيعة وسماع الدروس والمحاضرات والحوار مع الشباب الشيعي من أصدقاء صديقي..

ونتيجة لهذا كله تبددت من ذهني الكثير من الأوهام والتصورات غير الصحيحة التي كنت أحملها عن الشيعة.. وكانت لي بالإضافة إلى ذلك بعض الملاحظات السلبية إلا أنني نحيتها جانبا لاعتقادي أن الرؤية التي يجب أن تبنى تجاه أي تصور أو أطروحة سائدة إنما تقوم على أساس ما تتبناه هذه الأطروحة من معتقدات لا على أساس سلوك الأفراد وممارساتهم... وانتقلت بعد ذلك إلى الكويت بدعوة من أحد الأصدقاء السنة وهناك قمت بسياحة واسعة بين قطاعات الإسلاميين المختلفة وخرجت بنفس الانطباع الذي خرجت به من مصر. إن ما

يجري في مصر يجري في الكويت. وما تعيشه الساحة المصرية تعيشه الساحة الكويتية. وما ذلك إلا لتوحد الأصول والمنطلقات الفكرية واتفاق الجميع على خط الماضي..

وقد عاصرت أثناء تواجدي في الكويت أحد أجنحة تيار جهيمان العتيبي الذي قامت مجموعته باقتحام الحرم المكي عام ١٩٧٩ م. وكانت عناصره غاية من السفاهة والإنغلاق فقد كانوا يغدون على الصلاة بالنعال في المساجد ويحرمون قراءة الصحف والمجلات وحمل البطاقات وجوازات السفر والنقود لأنها تحوي صورا (١٥).

وأذكر أن مجموعة منهم قامت بعبور الحدود الكويتية - السعودية بهدف العمرة دون أن يكون معها ما يثبت شخصيتها وتم القبض على أفرادها من قبل السعوديين وترحيلهم إلى الكويت.. وكم كنت ضائقا بهذه الأوضاع والممارسات وأحاول التفلت من الوسط السني لأجل الوصول إلى الشيعة في الكويت والتعرف عليهم وقد كنت أجهل سبل الوصول إليهم. إلا أنني استطعت في النهاية اكتشاف جمعية لهم تحت اسم " جمعية الثقافة الاجتماعية " كنت أتردد عليها وتعرفت من خلالها على بعض الشباب الشيعي وحصلت على عدد من الكتب أذكر منها كتاب السقيفة. وكتاب عقائد الإمامية وكتاب المراجعات. وكنت في تلك الفترة أعمل كمحرر لمجلة البلاغ الإسلامية الأسبوعية ثم تركتها وعملت محررا ميدانيا لمجلة الرسالة الأسبوعية أيضا... والتي تركتها فيما بعد لارتباطها بالعراق وتعمل لحسابه حيث تتلقى التمويل المالي منه.

وقد ربطتني علاقة بصديق شيعي من عناصر جمعية الثقافة الاجتماعية ويدعى " سعيد " وقد قام بجهد كبير لتعريفي بواقع الشيعة في الكويت وكافة أنشطتها.
كما قام بتعريفي ببعض الرموز الشيعية العاملة في الكويت.

وعلى الرغم من حالة الاندماج مع التيار الشيعي بالكويت كانت لي صلاتي بالتيار السني وجماعاته المختلفة وخاصة جماعة الأخوان بقطاعيها المصري والكويتي. كما كانت لي علاقة بحزب التحرير الإسلامي الذي كان له نشاط واسع بالكويت آنذاك. وكنت أداوم على حضور الجلسات الخاصة بالأخوان

المصريين في بيت أحد أساتذة الجامعة الكويتية. في الوقت نفسه كنت أداوم على حضور جلسات الأخوان الكويتيين والتي كانت تقام في جمعية الاصلاح الاجتماعي مركز نشاطهم بالكويت. بالإضافة إلى مداومتي على حضور جلسات حزب التحرير والتي كانت تقام في بيوت أعضاء الحزب. وفوق هذا كانت لي صلاتي بالتيار السلفي. وقد حاول حزب التحرير تجنيدي للعمل معه إلا أنني اصطدمت بطرحه ولم تسترح إليه نفسي. وكان حزب التحرير دائم الهجوم على جماعة الأخوان والتشكيك فيها. وكانت جماعة الأخوان تقوم بنفس الدور في مواجهته كما أعلن الأخوان الكويتيون الحرب على الأخوان المصريين وكان التيار السلفي يهاجم الجميع ثم ما لبث أن بدأ ينشق على نفسه لتخرج من دائرته جماعات تميل لخط جهيمان وجماعات تميل للجهاد. وهكذا وجدت نفسي في دوامة الخلافات والصراعات من جديد وقررت أن أنأى بنفسي عنها وكانت قد بدأت تباشير الثورة الإسلامية في الظهور وبدأت أحداثها تخطف الأبصار وكان نجاحها قد شكل هزة كبيرة للإسلام السائد وفتح الآفاق أمام خط آل البيت مما مهد الطريق لي ولكثيرين غيري نحو التشيع.

لقد كانت الثورة الإسلامية في إيران بمثابة ضربة موجعة للتيار السني الذي ظل لسنوات طويلة ينادي بإقامة الخلافة ويعد ويمني بها. وفي الوقت نفسه كانت بمثابة دفعة قوية لي نحو الالتزام بخط آل البيت. إن نجاح هذه الثورة كان في الحقيقة نجاحا للأطروحة الشيعية. ونجاح الأطروحة الشيعية يعني رسوب الأطروحة السنية (١٦) .

هوامش

(١) - دفع التيار الوهابي بالشباب إلى نبذ الصوفية ومحاربتها. ويذكر أن في مصر أكثر من ثمانين طريقة صوفية قلة منها غير معترف به من قبل الدولة..

(٢) - أنظر كتابنا الحركة الأمية في مصر رؤية واقعية لمرحلة السبعينات وقد كنت من بين أعضاء هذه الجمعية في منتصف السبعينات..

(٣) - لا تزال هذه الجماعة تمارس نشاطها حتى اليوم بدعم الوهابية وتصدر مجلة شهرية تحت اسم التوحيد. وتركز في هجومها على الشيعة والصوفية..

(٤) - أنظر كتابنا الحركة الإسلامية..

(٥) - أدين في حادثة مصرع الدكتور الذهبي وزير الأوقاف خمسة من قيادات تيار التكفير على رأسهم مؤسس التيار شكري مصطفى وحكم عليهم بالإعدام. أنظر كتابنا الحركة الإسلامية..

(٦) - أنظر كتابنا الحركة الإسلامية..

(٧) - خرج هذا التيار من تحت عباءة الأخوان أيضا. أنظر المرجع السابق..

(٨) - المرجع السابق..

(٩) - المرجع السابق..

(١٠) - أنظر فصل التحرر من الماضي. والدين والتراث..

(١١) - أنظر كتابنا مذكرات معتقل سياسي ط القاهرة..

(١٢) - أنظر المرجع السابق..

(١٣) - أنظر المرجع السابق..

(١٤) - أنهى الدكتور علي القرش دراسته في مصر وحصل على رسالة الدكتوراه ثم أنتقل إلى الجزائر حيث يعمل هناك في إحدى جامعاتها..

(١٥) - أنظر كتابنا فقهاء النفط ط القاهرة..

(١٦) - كتبت الكثير من المقالات عن الثورة الإسلامية في مجلة البلاغ التي كنت أديرها آنذاك.

التحرر من الماضي

الجماعات الإسلامية
دفعتني إلى نبذ الماضي

لم أكن راضيا عن تلك الأطروحات السلفية التي تلقتها التيارات الإسلامية بالقبول ولم أكن راض عن مثالية السلف.

إن مثل هذا التصور إنما هو ضد العقل فضلا عن كونه ضد الواقع والطبائع البشرية. وتبينه سوف يؤدي إلى جعل العقل المسلم أسير الماضي. بالإضافة إلى جعله أسيرا لتصورات وهمية من شأنها أن تنعكس على واقعه محدثة تناقضا في السلوك والمواقف وسلبية في الأداء. وهو ما يشهد به واقع العمل الإسلامي.. (١).

من هنا فقد كنت دائم الصدام مع الأطروحة السلفية منذ بداية نشأتي في الوسط الإسلامي وكانت النتيجة أن حكم علي بالزندقة وفساد العقيدة من قبل الرموز السلفية السائدة فترة معايشتي للتيارات الإسلامية. كما صدرت تحذيرات لشباب الجماعات مني وتوصيات بوجوب مقاطعتي واعتزالي ولم تكن تعنيني تلك التحذيرات والإشاعات والأحكام التي صدرت في شخصي والتي تطورت فيما بعد إلى حملات هجومية تتبنى سلاح الطعن والتشويه. فقد كان يشغلني أمر البحث عن مخرج لما أنا فيه من تيه بعد أن تيقنت أن هناك خللا ما في الأطروحة الإسلامية المعاصرة.. السائدة طوال تلك الفترة. من بداية السبعينات وحتى منتصفها تقريبا كنت قد أصدرت عدة أحكام في كثير من كتب التراث المتداولة بين أيدينا وعلى رأسها كتاب العقيدة الطحاوية الذي يعد ركيزة التأسيس العقائدي لشباب

الجماعات. وكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي. وهذان الكتابان من أهم كتب التراث التي أسهمت في تشكيل العقل المسلم وتأسيس التصورات التي قامت على أساسها الجماعات الإسلامية فيما بعد (٢).

وبالإضافة إلى هذين الكتابين كانت هناك كتب المدرسة الحنبلية وفي مقدمتها كتب ابن تيمية والتي أغرق الوسط الإسلامي بها وكانت في أغلبها توزع مجانا وخاصة على طلبة الجامعات ومعها كانت توزع كتب محمد بن عبد الوهاب (٣).

ولم تكن الرموز البارزة في الوسط الإسلامي آنذاك وعلى رأسها رموز الأزهر والأخوان المسلمين على الرغم مما كانت تشكله من قدسية في نفوس شباب التيارات الإسلامية -لم تكن تملك المقدرة على التصدي لهذا الزحف الفكري القادم من الصحراء والذي كان يختطف النشأ المسلم من عالم الحاضر ليلقي به في متاهات الماضي. بل استسلمت تماما لهذا الزحف ووقفت أمامه موقف المتفرج.

ـ تيار التكفير

وعندما برز تيار التكفير على الساحة أحدث هزة كبيرة للخط السلفي ولأطروحة الماضي وأسهم بشكل غير مباشر في تعويق مسيرة الخط الوهابي والتيارات المتحالفة معه. فقد قام هذا التيار ينادي برفض فكرة التقليد والتمسك بأقوال الرجال وبهذه الأطروحة الجريئة منح معتنقيه حرية التلقي المباشر من الكتاب والسنة أو بمعنى أدق منحهم حرية إعمال العقل في النصوص بمعزل عن الرجال...

وإن كان تيار التكفير قد اعتبر أن من قلد كفر استنادا إلى قوله تعالى ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**﴾ (التوبة: ٣١) ونبذ الصحابة والفقهاء الذين يراهم قد تجاوزوا النصوص واجتهدوا عليها إلا أنه استسلم استسلاما مطلقا لرجال السنة وعلى رأسهم البخاري ومسلم وأصحاب السنن وانطلق يتلقى منهم النصوص النبوية وفق مقاييسهم وقواعدهم فصحح ما صححوه وضعف ما ضعفوه ونبذ ما نبذوه. وبالتالي وقع في متاهة الرجال من طريق آخر. وأوجد في أطروحته ثغرة وشرخا أسهم فيما بعد في القضاء عليه وتمزيقه ودعم مواقف خصومه من التيارات الإسلامية الأخرى.

ولقد ارتد كثير من الشباب عن تيار التكفير وعاد إلى أحضان التيار السلفي وازداد تمسكا وتعصبا للأطروحة السلفية بعد أن تبين له فساد خط التكفير وبطلانه بناء على نصوص نبوية قاطعة تم اكتشافها من قبل عناصر التكفير الذين أخذوا يخوضون في كتب السنة بحثا عن الأدلة التي يدعمون بها أطروحتهم (٤) .

إن تيار التكفير قد أسهم في دفعي نحو الاسراع في عملية التحرر من الماضي خاصة بعد ما اكتشفت أن فكر التكفير لا يخرج في محتواه ومضمونه عن فكر الخوارج الذين حاربوا الإمام عليا وانشقوا عن الخط الإسلامي السائد خاصة فرقة الأزراقة منهم (٥) .

وكنت قد عقدت مقارنة بين أطروحة تيار التكفير وأطروحة فرقة الأزراقة وقمت بنشرها وتوزيعها في الوسط الإسلامي وأحدثت أثرا كبيرا وكانت بمثابة مفاجأة للكثيرين الذين كانوا يتصورون أن أطروحة التكفير أطروحة اجتهادية جديدة خالية من رواسب الماضي...

وقمت أيضا بتأليف كتاب تحت عنوان: الحق. هل ينحصر في جماعة واحدة؟ ردا على إدعاء تيار التكفير أن الحق ينحصر في دائرته (٦) .

ورغم الهزة الشديدة التي أحدثها تيار التكفير في الواقع الإسلامي بمصر وكشفه للجانب السلبي في التراث وتشكيكه في الماضي ورجاله إلا أن ذلك لم يغير شيئا في شخصيات الذين انتموا إليه ثم ارتدوا عنه ولم يدفعهم إلى محاولة التحرر من الماضي أو فقد الثقة في أشخاص السلف بل أحدث في نفوسهم رد فعل دفعهم إلى التمسك والتشدد في أطروحة السلف وبدا وكأن هذا الموقف من قبلهم بمثابة شعور بالندم على نبذهم لخط السلف.

ومن خلال احتكاكاتي بعناصر تيار التكفير اكتشفت أن هذه العناصر ليست مجرد عناصر انتمت لتيار إسلامي حاله كحال التيارات الإسلامية الأخرى ويحمل أطروحة للنهوض بالإسلام ومواجهة الواقع. إنما كان تصور هذه العناصر أنها انتمت للحق أو للإسلام في صورته الحقيقية. فلم تكن قضية نصرة الإسلام وتمكينه تشغلهم كما تشغل التيارات الأخرى وإنما ما كان يشغلهم هو كيفية دعم ما هم عليه من حق والثبات عليه.

كانوا يقولون لي من خلال حوارات دارت بيني وبينهم: ما نحن إلا باحثون عن الحق وقد اهتدينا إليه. وإن كان لديك ما يثبت بطلان ما نحن عليه اتبعناك..

ومثل هذا التصور إنما يعكس بصورة مباشرة فقدان هؤلاء الشباب الثقة فيما بين أيديهم من أطروحات تنطق بلسان الإسلام وتتسمى بمسمياته.

ولا تزال لهذا التيار بقايا في الوسط الإسلامي بمصر وقد انتقل منها إلى بقاع أخرى من العالم العربي والإسلامي.. (٧)

ـ فكرة الحاكمية

ومثلما كان تيار التكفير أحد العوامل التي دفعتني نحو التحرر من الماضي كانت أيضا فكرة الحاكمية دافعا آخر لا يقل أهمية عن سابقه. فقد شكلت الحيرة الكبيرة التي كان يعيشها تيار الجهاد في مواجهة الحكومة وتأرجحه ما بين الخروج والطاعة. استفزازا كبيرا لي دفع بي إلى البحث في مسألة الحاكمية والمواقف من الحكومات في فقه السلف وكانت النتيجة التي خرجت بها قد بررت في نظري حيرة هذا التيار وتذبذبه بين ضرورة المنابذة ورفع راية الجهاد وبين الاستسلام للواقع.

إذ وجدت الأطروحة السلفية منحازة بالكامل للقوى الحاكمة داعمة موقفها بكثير من النصوص النبوية التي تبرر هذا الانحياز وتضفي المشروعية عليه.. (٨)

وبالطبع فقد كشفت عملية البحث هذه الكثير من الأمور والقضايا التي زادتني يقينا بأن هناك أيد خفية عبثت بالإسلام وطوعت قواعده ومفاهيمه لأغراض سياسية..

وفكرة الحاكمية التي هي محل جدل بين التيارات الإسلامية حتى وقتنا الراهن وتتفاوت مواقف هذه التيارات منها ما بين رافض لها كالتيار السلفي وتيار الأخوان ومتبن لها كتيار الجهاد وتيار القطبيين. هذه الفكرة تعد المتسبب الأول في انتكاسة الحركة الإسلامية المعاصرة وفشلها في الانتشار والتمكن على ساحة الواقع. بل فشلها في ممارسة العمل السياسي (٩) .

وسر ذلك يكمن في اعتماد الحركة على فقه الماضي كمستند ومصدر وحيد لتفسير هذه الفكرة. فتيار السلفيين والأخوان اعتمد على رؤية فقهاء السلف المنحازة

للحاكم المتحالفة معه. وتيار الجهاد تبنى وجهة ابن تيمية المعادية لبعض الحكام الذين ارتدوا من بين التتر الذين أسلموا وهي رؤية شاذة في الفقه السني. بينما تبنى الخط القطبي رؤية انعزالية متشددة تعتمد أساسا على اجتهادات سيد قطب.. (١٠)

ويعد تيار الأخوان هو التيار الوحيد من بين هذه التيارات الذي دخل معترك العمل السياسي حاملا فكرة الحاكمية ودخل في تحالفات مع الحكومة والأحزاب لم تحقق له نجاحا يذكر. بينما آثرت التيارات الأخرى أن تتبنى رؤية انعزالية تجاه الواقع ووصل الأمر ببعضها إلى تكفير الذين يمارسون العمل السياسي من الإسلاميين (١١) .

ومثل هذا التخبط في تحديد ماهية الحاكمية بين التيارات الإسلامية المعاصرة إنما يعود إلى تخبط فقهاء السلف في تحديد ماهيتها حيث وقفوا أمام قوله تعالى ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ (المائدة: ٤٤) موقفا تبريرياً يطوع النص لغير غرضه الظاهر حيث قالوا: كفرا دون كفر ولم يجرؤ أحد منهم على توجيه هذا النص نحو حكام زمانه. وقد انتقلت هذه الرؤية إلى التيارات الإسلامية المعاصرة وتبناها تيار الأخوان والسلفيين بينما نبذها تيار الجهاد والقطبيين على أساس أن حكام اليوم غير حكام الأمس. وإذا لم يكن حكام الأمس قد تجاوزوا حدود الإسلام فإن حكام اليوم تجاوزوها ودخلوا دائرة الكفر البواح التي جعلها فقهاء الأمس شرطا أساسيا لوجوب الخروج على الحكام حسبما نص الحديث النبوي.. (١٢)

مثل هذه المواقف التي تبناها فقهاء الأمس من الحكام والتي بنيت في مجملها على أساس مجموعة من الأحاديث المنسوبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي لا يستريح لها قلب المؤمن ولا عقله، أثارت الشك في نفسي وزكت نزعة الاعتقاد بأن السياسة تدخلت في صياغة الإسلام. وإذا كان الرسول من الممكن أن يقول هذا الكلام فما هو دور الإسلام إذن. وهل جاء ليقر الظلم ويمنح الحاكم سلطة استعباد الناس والاستيلاء على أموالهم.. (١٣)

إن مواقف فقهاء الأمس السلبية من الحكام والمبررة لأفعالهم وممارساتهم المتناقضة مع الإسلام قد انعكست على واقع الحركة الإسلامية اليوم وعلى تصوراتها

ومواقفها تجاه الواقع والحكام. هذه المواقف والأحاديث التي استندت عليها كانت السبب المباشر في إخفاق الحركة في مواجهة الواقع وسقوطها فريسة سهلة في قبضة القوى الحاكمة المتربصة. وهي أيضا من الأسباب المباشرة في تميع فكرة الحاكمية وتذبذبها لدى التيارات الإسلامية اليوم.. (١٤)

لقد توطن في نفسي أمر رفض هذه الأحاديث والروايات المتعلقة بالحكام وانبنى على هذا الرفض نبذ أقوال فقهاء السلف وتفسيراتهم لهذه النصوص وبالتالي نبذ مواقفهم من حكام زمانهم مما مهد الطريق لنبذهم بالكلية فيما بعد..

ولا شك أن مثل هذا الأمر كان من الصعب بل ومن الخطورة الجهر به في تلك الفترة وكان أقل ما يمكن أن يحدث لي هو منحي رتبة كافر أو زنديق.

إلا أنني حاولت نقد هذه النصوص وضربها بصورة لا تثير الشك ولا تدفع إلى نبذي آنذاك وهذه الصورة تمثلت في معارضة هذه النصوص بنصوص أخرى واردة على لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقول بعكس ما تقول هذه النصوص التي تقول بوجوب طاعة الحكام وهي النصوص التي تقول بوجوب الخروج عليهم والتي لم يجد هؤلاء الفقهاء من حل في مواجهتها سوى العمل على تقييدها.. (١٥)

ولعل أبرز صورة للتخبط والحيرة التي سببتها هذه النصوص للحركة الإسلامية تجلت في تيار الجهاد بمصر ذلك التيار الذي عجز عن اتخاذ الموقف الشرعي من نظام السادات والحكم عليه بالكفر البواح وتاه بين مقولات السلف وتفسيراتهم لهذه النصوص حتى اهتدى لفتوى ابن تيمية الخاصة بوجوب قتال معطلي الشرائع فبنى عليها موقفه من السادات وقام بتطبيقها عليه خاصة بعد أن أعلن علمانيته وهاجم الحجاب وأظهر عداءة للتيار الإسلامي في أواخر عهده.. (١٦)

وكأن القوم كانوا ينتظرون من السادات أن يعلن الكفر البواح حتى يعلنوا الخروج عليه ويقرروا استباحة دمه. أو بمعنى أدق كانوا يريدون تطبيق قواعد السلف حول مسألة الخروج وجهاد الحاكم على السادات حتى ينفوا عن أنفسهم الحرج الشرعي..

إن القاتل الحقيقي للسادات هو ابن تيمية ولم يكن خالد الإسلامبولي سوى

أداة حملت البندقية ووجهتها إلى صدره. ولأجل ذلك فإن الحادثة لم تتجاوز حد المنصة التي كان فيها السادات مع أن الطريق كان مفتوحا نحو القصر الجمهوري. ولكنه فقه الماضي الذي حال دون تمكن الحركة في الحاضر ولا يزال يحول.

ـ كتب العقائد

انتشرت بين شباب التيارات الإسلامية في فترة السبعينات كتب العقائد بتوجيه من قيادات هذه التيارات وعلى رأس هذه الكتب كتاب " العقيدة الطحاوية " للطحاوي المصري. وكتاب " العقيدة الواسطية " لابن تيمية. وكتاب " التوحيد الذي هو حق الله على العبيد " لمحمد بن عبد الوهاب. ومثل هذه الكتب كانت تركز على القضايا المتعلقة بالأسماء والصفات والإيمان والشرك موهمة الشباب أن عدم معرفة هذه الأمور من شأنه أن يضيع إسلامه ويحبط عمله..

وكتب العقائد هذه تحوي الكثير من الأطروحات السياسية والفكرية والاجتهادية التي لا صلة لها بمسألة العقيدة والإيمان والكفر. لكن القوم حشروها في هذه الكتب حتى يدفعوا المسلمين إلى الاعتقاد بها والذود عنها وبالتالي يتقيدون بالخط الذي رسموه لهم.. (١٧) .

ولقد كنت أتأمل هذه الكتب وأطرح على نفسي التساؤلات التالية:

ما صلة مسألة الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بالعقيدة..؟

ولماذا يصر فقهاء السلف على ضرورة الاعتقاد بهم بهذا الترتيب الرباعي..؟

وما هو الدليل الشرعي على ذلك..؟

وما صلة الحكام بالعقيدة. وكيف يجعل أمر طاعتهم والصلاة خلفهم والحج معهم والجهاد تحت رايتهم من العقيدة؟ ولماذا يحاول الفقهاء إجبار الأمة على الاعتقاد بضرورة الصلاة وراء كل بر وفاجر..؟ ولماذا تحيز فقهاء السلف لرأي يناقص القرآن والعقل حول هذه القضية..؟ (١٨) .

ولماذا يصر الفقهاء على تلقين الأمة مفهوما محددا عن آل البيت ويجعلونه عقيدة..؟.

ولماذا يسمون كتب العقائد بأسماء أصحابها كالعقيدة الطحاوية. والعقيدة

النسفية والعقيدة السلفية. والعقيدة الحموية. والعقيدة الواسطية..؟ (١٩) .

أليست هذه التسميات تشبه تسميات النصارى لأناجيلهم المختلفة: إنجيل متى. وإنجيل لوقا. وإنجيل يوحنا. وإنجيل مرقس وخلافه..؟ (٢٠) .

لقد خرجت من هذه التأملات بنتيجة مفادها أن جميع هذه الأمور لا صلة لها بالعقيدة وأن العقيدة الحقيقية هي شئ آخر غير هذه المفاهيم والأطروحات التي لا تخرج عن كونها أطروحات فرضتها السياسة وباركها الفقهاء (٢١) .

إلا أن هذه النتيجة لم ترح عقلي فقد كنت أشك أن هناك سرا أو دافعا قويا وراء حشو كتب العقائد بمثل هذه الأمور..

وهذا التفسير كما هو واضح لا يحسم الأمر ويرجح كفة أهل السنة. ففضلا عن كون هذا الحديث (٢٢) هو الدليل الوحيد الذي يتمسكون به لإثبات هذا الادعاء. فهو من جهة أخرى ظني الدلالة ولا يفيد معنى قطعيا من هذه المسألة.. (٢٣)

وإن صح التسليم بمنطق أهل السنة فهذا يعني كفر جميع الفرق الأخرى. وانحصار الحق في دائرتهم. وهذا أمر يرفضه العقل فهم لا يتميزون عن الآخرين بشئ وما يطرحونه لا يخرج عن كونه اجتهادا يحتمل الخطأ والصواب.. (٢٤)

ولقد كانت كتب العقائد تزكي في نفوس الشباب مفهوم أهل السنة للفرقة الناجية مما كان يدفع بهؤلاء الشباب إلى الاستسلام المطلق لأطروحتهم وقبول محتوياتها دون قيد أو شرط وقد عشت طويلا في هذا الوهم حتى هداني عقلي إلى التحرر منه بفضل الله تعالى..

إن فكرة الفرقة الناجية لم تكن لتتوافق مع اتجاه يوالي بني أمية وبني العباس وغيرهم من الحكام أصحاب التاريخ المسطر بدماء المسلمين..

ولم تكن لتتوافق مع فقهاء يبررون مواقف وممارسات هؤلاء الحكام (٢٥) ..

لم تكن لتتوافق مع أناس يهينون الرسول ويفضحونه (٢٦) ..

وكيف يقبل العقل وتستريح النفس إلى أن شخصا مثل يزيد بن معاوية يمكن أن يكون من الفرقة الناجية..؟

إن قوما بهذه العورات يغرقون في هذه الانحرافات لا يمكن أن يكونوا من

الناجين. وهم بهذه الحالة إنما يؤكدون أن المقصودين بهذا الحديث هم سواهم من المسلمين..

إن التحرر من وهم الفرقة الناجية كان من أهم العوامل التي ساعدتني في التحرر الكامل من الماضي برموزه وأطروحاته. فهذا الوهم كان يفرض سياجا حول العقل ويحول بينه وبين أية محاولة للشك أو النظر في محتويات الأطروحة السنية. وكذلك إخضاع رجال السلف صحابة وفقهاء لدائرة النقد. وبحث مواقفهم وأقوالهم. فما دام العقل يعيش حالة من الاستسلام المطلق للماضي المقدس على أساس كونه يمثل أهل الفرقة الناجية فمن الصعب أن يصدر حكما فيه دون أن يتحرر من وهم القداسة النابع من مفهوم الفرقة الناجية..

ولقد شكل مفهوم الفرقة الناجية حالة من التعصب لدى الشباب المسلم الذي تشبع بهذه الفكرة وبني على أساسها موقفا عدائيا من الآخرين خاصة من الشيعة حال بينه وبين المرونة في مواجهة الواقع والأحداث وانعكس هذا الموقف بالتالي على واقع الحركة الإسلامية وتصوراتها..

ـ الإتباع..

كان مما يثيرني في الوسط الإسلامي بمصر قضية حصر دائرة الإتباع في محيط مدرسة ابن تيمية وأتباعه. وكنت كلما تأملت هذا الأمر تطرأ على ذهني التساؤلات التالية:

لماذا حصر الإتباع في دائرة ابن تيمية وأتباعه..؟.

وأين دور المدارس السلفية الأخرى..؟.

ولماذا تبرز مسألة رفض المذهبية بقوة بين أوساط الشباب المسلم..؟.

لقد بدأت أشك أن هناك قوى خفية تستدرج هذا الشباب إلى خط محدد يجعلهم صيدا سهلا لتيارات مشبوهة..

وعندما برز أمامي الدور الوهابي المشبوه وجدت الإجابة على هذه التساؤلات جاهزة. فقد تكشف لي أن هذا الخط الذي اخترق صفوف الشباب والجماعات هو منبع هذا الموقف وهو الذي يغذي مثل هذه التصورات التي تقوم على الاستخفاف

بالمذاهب الإسلامية وتقديس ابن تيمية ورفعه فوق فقهاء المسلمين والتعتيم على المدارس الإسلامية الأخرى..

وقد اكتشفت أن هؤلاء الذين ينادون برفض المذهبية من الشباب ورموز التيارات الإسلامية هم متمذهبون دون أن يعلموا. فهم إن كانوا يرفضون الالتزام بمذاهب الفقهاء الأربعة المعروفة هم في الحقيقة يتبعون مذهب الحنابلة بل ويلتزمون بالشق المتطرف منه الذي تبناه ابن تيمية وبعثه محمد بن عبد الوهاب.. (٢٧)

لقد تبين لي أن أية محاولة لنبذ الإتباع والتقليد إنما هي في حقيقتها محاولة لنقل المرء من إتباع إلى إتباع ومن تقليد إلى تقليد. فهؤلاء الذين ينادون برفض المذهبية والتقليد إنما تمذهبوا بمذهب ابن تيمية بطريق غير مباشر بل ومذهب باعث أفكاره وأطروحته محمد بن عبد الوهاب فهم قد انتقلوا من تقليد وإتباع أبي حنفية والشافعي ومالك وابن حنبل إلى اتباع وتقليد ابن تيمية وهم بهذا لم يأتوا بجديد سوى أنهم غرروا بالشباب المسلم وعزلوه عن المدارس الإسلامية المتنوعة وحصروه في دائرة مدرسة محددة شاذة عن المسلمين.. (٢٨)

وفريق التكفير عندما نادى بنبذ التقليد إنما وقع في نفس المتاهة وانتقل بأتباعه من تقليد أهل الفقه المعروفين إلى تقليد شكري مصطفى مؤسس تيار التكفير وصاحب أطروحته ..

وبالبحث والدراسة فيما يتعلق بالمذاهب والمدارس الإسلامية المختلفة توصلت إلى الحقائق التالية:

* أن هناك مدرسة منبوذة بين مدارس السلف وهي مدرسة آل البيت (ع)..

* أن نبذ هذه المدرسة وعزلها كان لأغراض سياسة..

* أن هذه المدرسة تتلمذ عليها الكثير من الفقهاء على رأسهم مالك وأبو حنفية والشافعي..

* أن الشيعة هم الطائفة الوحيدة من بين المسلمين الذين يتقيدون بهذه المدرسة ويتلقون منها..

* أن مدرسة الحنابلة وخاصة جناح ابن تيمية هم خصوم لهذه المدرسة متربصون بها..

أن ابن تيمية هو أبرز فقهاء السنة وأكثرهم عداء للشيعة ومحاربة لها.

بعد هذه النتائج بدت المسألة لي أكثر وضوحا. هناك مجموعة من الخطوط التي عبثت بها السياسة وهناك خط معادي من الجميع.. (٢٩)

الخطوط هي المذاهب..

والخط الآخر هو خط آل البيت (ع)..

والسؤال الذي فرض نفسه علي بعد هذا كله هو: لماذا يعادى خط آل البيت (ع). وما هي معالم هذا الخط. وأين هي أطروحته..؟.

وبالطبع لم أجد الجواب عند القوم. فقد محت السياسة كل شئ يتعلق بآل البيت من تراثهم ولم تبقى إلا على القشور وما يخدم مآرب وتوجهات ومصالح الحكام. فمنذ أن برز معاوية وساد الخط الأموي وبدأت الأمة تسير في خط آخر معاد لآل البيت بدأ بسب الإمام علي على المنابر وانتهى بذبح وتصفية أبناءه وأشياعهم ومحو تراثهم وعلومهم.. (٣٠)

منذ ذلك الحين برزت عائشة وابن عمر وأبو هريرة لينطقوا بلسان الرسول (صلى الله عليه وآله) ويكونوا المتحدثين الرسميين باسم الإسلام لتتبعهم الأمة وتسير على هداهم..

من هنا فقد تكشف لي أن عملية حصر دائرة الإتباع في مدرسة محددة إنما هي وليدة مراحل سابقة لمرحلة ظهور المذاهب. أنها وليدة عصر ما بعد وفاة الرسول. وبرزت بصورة أكبر على يد الأمويين بقيادة معاوية الذي وجه الأمة نحو صحابة ورموز تدعم شرعيته ولا تتناقض مع خطه وقام بنبذ الصحابة والرموز الذين يوالون خط آل البيت بقيادة الإمام علي والتعتيم عليهم.. (٣١)

وهكذا تبين لي أن الإتباع والتلقي قد قام على أساس الانحياز لخط معين من الحكام. وأن الأمة سارت في ذلك الخط على حساب مدرسة آل البيت وخطهم. وأن هذا الانحياز كان بتخطيط وتوجيه من الحكام. وأن الأمة سارت على هذا

النهج دون أن تدري شيئا عن حقيقة هذه المؤامرة. ثم وقعت الحركة الإسلامية المعاصرة في هذا الفخ الذي نصبه لها بعض الحكام..

وكان علي بعد هذا كله وبعد أن تبين لي هذا الخلل وتكشف لي هذا التناقص وأفاق عقلي من وهم الفرقة الناجية ودخل الشك نفسي في مسألة الإتباع والتلقي من مدرسة أهل السنة، كان علي أن أتحرر من هذا الماضي وأرفع أغلاله عن عنقي لأتمكن من البحث في حرية عن دائرة الإتباع والتلقي الشرعية متبنيا منهج الشك فيما بين يدي من أطروحات سلفية على ما سوف أبين في الفصل القادم..

هوامش

(١) - أنظر كتابنا العقل المسلم بين أغلال السلف وأوهام الخلف.

(٢) - أنظر مناقشة هذه الكتب في كتابنا فقه الهزيمة وأنظر المرجع السابق. وكتاب العقيدة الطحاوية هدفه إلزام المسلم بعقيدة تخدم الخط السائد. والعواصم كتاب هدفه منع المسلم من الخوض في الأحداث المتعلقة بالصحابة حتى لا يزيغ بزعمهم وهو يحقق الهدف أيضا..

(٣) - كان شباب الجامعات في مصر ركيزة الحركة الإسلامية في مصر. وكانت الكتب السلفية والوهابية تطبع في مصر عن طريق دور نشر سلفية وإخوانية. أنظر كتابنا الحركة الإسلامية في مصر.

(٤) - كان كثيرا ما يكتشف عناصر التكفير الكثير من النصوص النبوية التي تشكل حرجا لأفكارهم وتكون بمثابة مشكل لهم. وكانوا في مواجهتها بين أمرين: إما أن يؤولوها وهذا يجعلهم متساوين مع رجال السلف الذين كفروا مقلديهم. وإما أن يرفضوا هذه النصوص وهذا يوقعهم في حرج أكبر وقد اضطروا لتبني نهج التأويل في مواجهة حملات الخصوم مما دفع بالكثير من عناصر التيار إلى التململ والارتداد عن التيار.. أنظر كتابنا الحركة الإسلامية..

(٥) - أنظر تاريخ فرقة الخوارج.

(٦) - هذا الكتاب كان يتداول مخطوطا وقد فقد مني بعد انقطاع صلتي بالوسط السني.

(٧) - وقد أنتقل تيار التكفير إلى اليمن والأردن والسعودية والجزائر وحتى أوروبا.

(٨) - سوف نعرض لهذه النصوص في باب رحلة الشك.

(٩) - أنظر هذا الأمر بتوسع في كتابنا عقائد السنة وعقائد الشيعة. وكتابنا الإسلام والعمل السياسي.

(١٠) - أنظر كتابنا الحركة الإسلامية في مصر. ولابن تيمية فتوى شهيرة تجيز مقاتلة معطلي الشرائع من الحكام وقد بناها على أساس حكام التتر الذين أسلموا وحكموا فيما بينهم كتاب " الياثق " وهو كتاب من وضع جنكيز خان ويحوي أحكاما من التوراة والإنجيل والقرآن ومن عنده. وقد اعتمد تيار الجهاد على هذه الفتوى في تبرير صدامه مع الحكومة المصرية. أنظر فتاوى ابن تيمية. وكتاب الفريضة الغائبة لمحمد عبد السلام فرج أحد الخمسة الذين أعدموا في قضية اغتيال السادات..

(١١) – أنظر الحركة الإسلامية. والإسلام والعمل السياسي. وقد صدرت عدة منشورات من التيار السلفي والتيار الجهادي تهاجم الذين يمارسون العمل السياسي من الإسلاميين. منشور صدر عن التيار السلفي تحت عنوان: القول السديد من أن دخول مجلس الشعب مناف للتوحيد. وأصدر تيار الجهاد منشورا تحت عنوان: أإله مع الله. إعلان الحرب على مجلس الشعب..

(١٢) – ربط الحديث في إباحة الخروج على الحكام بقيد: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان. وهذا يعني استحالة الخروج وقطع السبيل على الخارجين. أنظر مسلم..

(١٣) – أنظر باب رحلة الشك.

(١٤) – أدت هذه الروايات إلى حدوث انشقاقات وصدامات فكرية بين التيارات الإسلامية وبعضها خاصة بين تيار الجهاد وتيار الأخوان والسلفيين.

(١٥) – أنظر باب رحلة الشك.

(١٦) – القاتل الحقيقي للسادات هو ابن تيمية فلولا فتواه ما وجد هؤلاء الفتية مبررا لقتله.

(١٧) – أنظر باب رحلة الشك.

(١٨) – يتبنى فقهاء السنة الكثير من الروايات والآراء التي تفيد التجسيم والتشبيه. أنظر عقائد السنة وعقائد الشيعة..

(١٩) – أنظر مناقشة هذه الكتب في كتابنا فقه الهزيمة. وهذه الكتب عدا كتاب العقيدة النسفية. تقوم بطبعها وتوزيعها بعض الدول مجانا على المسلمين في كل مكان..

(٢٠) – أنظر عرض هذه النصوص في باب رحلة الشك.

(٢١) – من هذه الكتب كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي. وكتاب الملل والنحل للشهرستاني. وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٢٢) – رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة. والحديث من رواية معاوية.. تأمل. وقد انتقد الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الراحل هذا الحديث في كتابه التفكير الفلسفي في الإسلام. كما انتقده الشيخ الغزالي في كتابه المستشرقون.

(٢٣) – أنظر مناقشة هذا الحديث في كتابنا فقه الهزيمة. وأنظر المراجع السابقة.

(٢٤) – أنظر عقائد السنة وعقائد الشيعة.

(٢٥) – أنظر فصل التبرير والتأويل من الكتاب.

(٢٦) – أنظر فصل الرسول والنساء.

(٢٧) – غرر بالحركة الإسلامية والرموز الإسلامية المعاصرة الذي توهموا بأن الخط الوهابي يمثل أطروحة السلف بينما هو في الحقيقة يمثل خط ابن تيمية المنبثق عن الحنابلة الذين كانوا في شقاق وصدام دائم مع المسلمين المخالفين.

(٢٨) – يعتبر طرح ابن تيمية شاذا في الفقه السني وقد عودي من علماء عصره وحكم بكفره وحبس بتحريض من الفقهاء حتى مات في الحبس. أنظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (ج ١ / ١٥٢).

(٢٩) – دعم العباسيون المذاهب وكذلك صلاح الدين والظاهر بيبرس. وكان الهدف من دعم هذه الخطوط هو ضرب خط آل البيت المتمثل في الشيعة.

(٣٠) – أنظر كتابنا السيف والسياسة في الإسلام.

(٣١) – أنظر باب تضخيم الرجال من هذا الكتاب..

الدين والتراث

كنت على الدوام أطرح على نفسي السؤال التالي: ما بين أيدينا تراث أم دين..؟

كان العرف السائد أن ما بين أيدينا هو الدين. وهكذا كنت أتصور لفترة من الزمن. هي فترة نشأتي الفكرية. إلا أنه مع مرور الزمن وحصولي على قدر من الوعي والخبرة أمكن لي أن أتبين الفروق بين التراث والدين..

وتجلت أمام عيني حقيقة ساطعة وهي أن الصراع الفكري المحتدم بين المسلمين إنما هو صراع يقوم على أساس التراث وليس على أساس الدين..

وتبين لي أن الجماعات والتيارات الإسلامية إنما بنت تصوراتها وأصولها الفكرية على أساس أطروحات تراثية وليس على أساس نصوص دينية.

وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في الأصول الفكرية التي يقوم عليها تيار الأخوان والتيار السلفي وتيار الجهاد وحتى التيار الحكومي. ويبدو أكثر وضوحا في ردود هذه التيارات على الجماعات المنشقة عنها والمناوئة لها مثل تيار التكفير. (١)

كما يبدو في كم الفتاوي والخطب والمؤلفات السائدة في الوسط الإسلامي والتي تعكس نتاجات واجتهادات ومواقف لفقهاء السلف أكثر من كونها تعكس نصوصا..

من هنا فإن إحساسي بالخديعة وحكمي بالزيف على الأطروحة الإسلامية

المعاصرة سرعان ما تنامى وقوي بحيث دفعني إلى طرح التراث جانبا والبحث عن الدين من جديد..

وينبغي قبل الخوض في التفاصيل أن نعمل على تعريف مفهوم التراث ومفهوم الدين حتى يمكن التفريق بينهما. فمن دون هذا التفريق يحدث الخلط وتضيع حقيقة الدين..

ـ ما هو الدين..؟

إن الدين هو مجموعة النصوص التي جاء بها الرسول وبلغها للناس. الدين هو حركة اتصال بين الله والإنسان ينتج عنها الالتزام بعقائد وشرائع إلهية..

والكتاب الذي يأتي به الرسول إلى قومه إنما يحوي أصول وقواعد هذا الدين. فمن ثم تعد مخالفته والطعن فيه خروجا عن الدين وكفرا به.

التوراة تحوي دين اليهود..

والإنجيل يحوي دين النصارى..

والقرآن كما بلغه وبينه يحوي دين المسلمين..

وما دام القرآن يحوي دين المسلمين فهو كما بينه الرسول يعد المصدر الوحيد لهذا الدين وأية محاولة للجوء إلى مصادر أخرى معناه تشوه هذا الدين وضياع معالمه..

وقديما أفتى ابن تيمية بكفر التتار الذين أسلموا لأنهم حكموا في حياتهم " الياثق " بجوار القرآن كما أشرنا في الباب السابق..

والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تنحصر مهمته في تبليغ القرآن وتبيينه للناس ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ (سورة النور: ٥٤) وهذا التبيين إنما يكون ضمن حدود القرآن. وحتى يكون هناك التزام من الرسول بهذه الحدود ضبطت حركة نطقه وقيدت بالوحي ﴿ **وما ينطق عن الهوي إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ (سورة النجم: ٣ - ٤) وذلك من أجل الحفاظ على شكل الدين وقواعده كما أراد الله سبحانه..

إن فهم دور الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مقدمة لفهم القرآن.

وفهم القرآن هو معرفة الدين والإحاطة به. ودور الرسول في البلاغ والبيان ينتهي

بوفاته. أما دور القرآن فهو مستمر إلى قيام الساعة..

والقرآن هو المصدر الوحيد الذي نمسك به بين أيدينا وليس محل خلاف وما دونه من المصادر هي محل خلاف بين المسلمين. وعلى رأسها مصدر السنة أو الأحاديث..

إلا أنه مع المتغيرات والخلافات والسياسات أصبح الذين ينادون بالقرآن متهمون من قبل الفقهاء بالتآمر على الإسلام..

وحيث أن السنة هي تبيين للقرآن فإن هذا التبيين إنما يكون في حدود القرآن ولا يتجاوزه. وعلى هذا الأساس ينبذ كل ما ينسب للرسول مما يخالف نصوص القرآن..

لكن القوم اعتبروا أن كل ما يقوله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتثبت - في نظرهم وعلى حسب قواعدهم - صحته يجب أن يلتزم به المسلمون ويتعبدوا به حتى وإن خالف القرآن..

وثبوت صحة الحديث إنما تقوم على أساس السند عندهم وليس على أي أساس آخر أي ما دام الرواة الذين نقلوا الحديث عدولا ولا غبار عليهم حسب مقاييسهم يكون الحديث صحيحا وتبقى مسألة مخالفته للقرآن إشكالية ظاهرية أو لفظية يمكن التغلب عليها. حتى أن بعض الفقهاء اعتبروا جواز نسخ القرآن بالحديث..

ومثال ذلك أن الفقهاء اعتمدوا عدم جواز نكاح المرأة على عمتها واعتبروا ذلك من المحرمات على أساس حديث وارد عندهم أثبتوا صحته. في حين أن القرآن ذكر المحرمات من النساء بالتفصيل ولم يذكر من بينهم عمة أو خالة الزوجة (٢) ..

ولا شك إن تبني مثل هذه الرؤية سوف ينعكس على مفهوم الدين ويجعل المسلمين مشتتين بين أحكام القرآن وأحكام الرسول المبينة له وبين أحكام المرويات عن الرسول مما هو مناقض للقرآن ومخالف لأحكامه..

وإذا ما تبين لنا أن مهمة الرسول (ص) هي تبليغ ما يوحي إليه من ربه.

فيتحدد لنا الدين بالتالي في حدود ولا يجوز للرسول أن يضيف أحكاما فوق أحكام القرآن...

ـ ما هو التراث؟ ـــــــــــــــــــــــــــــ

إن التراث هو مجموعة الاجتهادات الحادثة على الدين من أقوال وروايات وتفسيرات ويدخل في دائرته الحديث والتأريخ والفقه والتفسير وشتى النتاجات التي تمخض عنها العقل على ضوء الدين..

إن الدين هو الحق..

والتراث هو متعلقات هذا الحق..

الدين ثابت..

والتراث متغير..

الدين لا يؤخذ فيه ويرد..

والتراث محل أخذ ورد..

الدين بلاغ من الله إلى الإنسان..

والتراث اجتهاد بين الفرد والنص..

ومن خالف الاجتهاد لا يكون بالضرورة قد خالف النص..

من هنا ينبغي علينا أن نفرق بين النص. وبين الاجتهاد الحادث عليه..

بين الدين وأقوال الرجال..

بين النصوص القرآنية الشرعية..

وبين النصوص الوضعية الاجتهادية..

وبدون ذلك لن نصل إلى حقيقة الدين..

ولن نعبد الله عبادة صحيحة..

وعندما نتوقف في قبول ما روي عن الرسول مما هو مخالف للقرآن نكون بذلك قد فرقنا بين النص وبين أقوال الرجال..

ولو أنزلنا أقوال الرجال منزلة النصوص نكون قد عبدناهم كما عبد اليهود والنصارى الأحبار والرهبان..

ونكون قد ساوينا بين التراث والدين..

وهذا ما وقعت فيه التيارات الإسلامية اليوم خاصة تيار التكفير عندما بنت تصورات وأحكاما بالتكفير والحرمة والاستحلال على أساس اجتهادات تراثية وأحاديث نبوية هي محل خلاف ونتج عن هذه التصورات ما نتج من انتكاسات فكرية وحركية للحركة الإسلامية بشكل عام..

وهنا يطرح السؤال التالي: هل النص يسبق الاجتهاد أم الاجتهاد يسبق النص..؟

وتكون الإجابة بالطبع أن النص يسبق الاجتهاد والاجتهاد هو الحادث عليه..

وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على جميع الأطروحات الإسلامية على مستوى الماضي والحاضر فإننا سوف نتوصل إلى معرفة الحق بسهولة..

وسوف نضرب على ذلك مثالا من خلال محاوراتنا مع تيار التكفير في فترة السبعينات. كان تيار التكفير يقول بتكفير المصر على المعصية..

وكان يقول بكفر مرتكب الكبيرة..

وكان يقول بكفر المقلد..

وكان يقول بانحصار الحق في دائرته..

ويقول بوجوب الهجرة..

وأمام هذه الأقوال طرحنا السؤال التالي:

هل هذه الأقوال نصوص. أم اجتهادات على ضوء النصوص..؟

فإن زعم المكفرون أنها نصوص يكونون بذلك قد كفروا وخرجوا من دائرة الإسلام. فليست هناك نصوص قرآنية أو حتى نبوية تقول بذلك..

وإن زعموا أنها اجتهادات. فمعنى ذلك أنها تدور في مجال القبول والرفض. وتخضع للأخذ والرد. فمن ثم هي ليست ملزمة للمسلمين..

والتكفير أو حتى التحريم على أساس الاجتهاد إنما ينزل هذا الاجتهاد منزلة

النصوص. وبالتالي يدخل في دائرة الكفر كل من التابع والمتبوع..

وهذه هي متاهة الأحبار والرهبان التي أضاعت اليهود والنصارى من قبل وقد وقع فيها المسلمون اليوم بتبنيهم أقوال الرجال بدلا من تبنيهم النصوص..

فتيار التكفير عندما حاول أن يحرر أتباعه من إتباع أقوال الرجال وتقليدهم وقع في الإتباع والتقليد من باب آخر. إذ نقل أتباعه من تقليد المذاهب وفقهاء السلف إلى تقليد مذهبه واتباع اجتهادات شكري مصطفى مؤسس التيار وباعث أطروحته..

كل ما في الأمر أن مجموعة من المسلمين انتقلت من إتباع فقهاء يقولون بأن المصر على المعصية ومرتكب الكبيرة والمقلد ورافض الهجرة ليس بكافر. إلى اتباع من يقول بكفر مرتكب ذلك..

والتزاما بالقاعدة التي ابتدعها تيار التكفير وهي: من قلد كفر. يكون هذا التيار قد كفر وارتدت أطروحته في نحره..

وفقهاء السلف لم يقل أحد منهم أن قوله أو اجتهاده ملزم للمسلمين. وأن مخالفته تدخل المسلم في دائرة الكفر. بينما قال هذا الكلام تيار التكفير اعتقادا منه أن كلامه هو النص..

ولو تبنى المسلمون قضية الفصل بين النصوص وأقوال الرجال معتبرين أن النصوص هي الأصل وأن الاجتهاد حادث عليها مع جميع أطروحات التراث لأمكن جلاء الحقيقة وإظهار الدين في صورته النقية الصافية. إلا أن هذه القاعدة لا يمكن تطبيقها والرجال فقهاء وساسة متربصون بالنصوص وبكل محاولة لتحريرها من قيودهم.

ـ الحق والباطل ـــــــــــــــــــــــــــ

ليس في الإسلام مذهبية..

ليس هناك ما يسمى بشيعة أو سنة أو شافعية أو مالكية أو أحناف أو حنابلة..

فكل هذه تسميات تأريخية من اختراع السياسة (٣) ..

والحق أن هناك إسلام حق وإسلام باطل..

إسلام رباني وإسلام حكومي..

والذي ساد على مر التاريخ هو الإسلام الحكومي..

والذي ضرب واختفى هو الإسلام الرباني..

إن الأسماء والمسميات لا مجال لها هنا. فالمهم هو الحق. وأمام الحق تتلاشى الأسماء والمسميات ويبدأ التركيز على الجوهر..

والبحث عن الحق يوجب تتبع النص لا تتبع أقوال الرجال..

تتبع النص سوف يقود إلى الحق..

وتتبع الرجال سوف يجعل هناك وسائط بين الباحث والنص. وسوف يجعل الباحث رهين الرجال لا رهين النص..

إن النص هو المعيار وهو مناط التكليف. والمسؤولية إنما تقع على كاهل المسلم بالنص. وحسابه يقوم على النص. ونجاته من النار كذلك..

والنص هنا يقصد به النص القرآني أو النبوي الصحيح الموافق للقرآن والعقل فيما يتعلق بمجال الغيبيات والإتباع والسياسة والأخلاق وأصول الدين والولاء والبراءة وخلاف ذلك غير النصوص المتعلقة بالأحكام فهذه محل اجتهاد وتتباين أمامها الأفهام ولها أهلها ممن تتوافر فيهم القدرات العلمية وشروط الاجتهاد..

النصوص المتعلقة بقضايا الدعوة ومستقبل الدين، وأصوله والولاء والبراء وتحديد مصدر التلقي والقدوة والسلوك الإنساني والنجاة من النار لا يجوز التقليد فيها. ومن حق المسلمين أن يعملوا فيها عقولهم من أجل الوصول إلى الحق..

وما ضلت الأمة إلا بتعطيل العقل وتسليم زمامها لفقهاء الماضي وفقهاء الحكومات من المعاصرين لتتلقى منهم دينها دون أن تميز بين ما يجب فيه التقليد وما لا يجب فيه التقليد..

ولو أتيحت الفرصة للمسلمين ليفهموا النصوص المتعلقة بالجهاد والسياسة والحكام ومستقبل الدعوة والقدوة الحقة بمعزل عن الفقهاء لكان من الممكن أن تتكون في أذهانهم صورة الإسلام الحقة التي سوف يجعلونها مقياس الحكم على

هـؤلاء الفقهـاء وأمثـالهم. لكـنهم جعلـوا هـؤلاء الفقهـاء وسـيلتهم لفهـم هـذه النصوص وبالتالي جعلوا أنفسهم رهينة لخط محدد هو الخط الـذي رسـمه الحكـام بمعونة هؤلاء الفقهاء (٤)..

من هنا فإن التحرر من هذا الخط هو الخطوة الأولى للوصـول إلـى الحـق. ولـن يتحقق هذا التحرر إلا عن طريق النصوص. فهذه النصوص هي التـي سـوف تحـدد لنا القدوة الحسنة التي يجب أن نتبعها ونتلقى منها ديننا من القـدوة الـسيئة التـي مـن الممكن أن نسقط في حبائلها فيما لو نحينا النصوص جانبا وعطلنا العقل..

وعندما تحدد النصوص من هم القدوة ومصدر التلقـي تحـسم القـضية وينتهـي الخلاف ويتوجب الالتزام. فهـذه القـدوة سـوف تكـون منـاط الحـق والمعبـرة عنـه والناطقة بلسانه..

ومن خلال بحثي وتأملاتي تبين لي أن هناك قدوة سيئة سـادت الأمـة مـن بعـد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنهـا بـرزت جميـع الأطروحـات التـي موهـت على حقيقة الإسلام وزيفت النـصوص وحجبـت بأقوالهـا وتفـسيراتها حقيقتهـا عـن الأمة. وبالتالي أسهمت في تمكـين الباطـل وإضـعاف الحـق واختـراع سـبل متفرقـة أضلت الأمة عن سبيل الله..

وعنـدما يـتم الكـشف عـن القـدوة الحقـة سـوف تتـضح أمامنـا القـدوة الباطلـة والحكم في ذلك إنما يكون للنصوص وليس للرجال..

وتبرز لنا أهمية القدوة وكونها قضية مصيرية حين يتبين لنـا أن الرسـول (صـلى الله عليه وآله وسلم) هو خاتم الرسـل وأن هـذا الخـتم يفـرض وجـود قـدوة حـسنة تحفظ الدين من بعده وتسد الفراغ الذي أحدثه غيابه في واقع الأمة. وهـذه القـدوة يجب أن تتوافر بها مؤهلات خاصة لتأدية هذه المهمة تميزها عن الآخرين حتـى لا يقع النزاع وتستقطب الأمة قدوات أخرى تقودها نحو الباطل..

وقد شغلتني هذه المسألة كثيرا أو شكلت حيـرة كبيـرة بالنسبة لـي. فـي وسـط هـذه الحيرة كانت هناك تساؤلات كثيرة لا أجد لها إجابة في الأطروحة أو فـي التـراث الـذي بين أيدينا أول هذه التساؤلات كان في تحديد ماهية الحق بعـد الرسـول (صـلى الله عليه وآله وسلم)؟.

هل هو ينحصر في القرآن؟.

وإذا كان ينحصر في القرآن فأين التفسير الحق لهذا القرآن؟.

ولقد تتبعت تأريخ القرآن فلم أجد جوابا بل زدت شكا وحيرة بسبب الطريقة التي تم بها جمع القرآن. والخلافات التي وقعت بين الصحابة حول جمعه وتفسيره (٥) ..

وزاد الطين بلة تلك الروايات الكثيرة التي تتعلق بآيات من القرآن لم تدون فيه أو تم رفعها وبقي حكمها أو بقى نصها ورفع حكمها (٦) ..

إن مثل هذا الخلاف حول القرآن قد ولد لدي قناعة بأنه لا بد وأن تكون هناك جهة ما تحسم هذا الخلاف وأن هذه الجهة لا بد وأن تكون هي القدوة الحسنة..

ولكن من هي هذه القدوة؟.

ولماذا لم تبرز لتؤدي دورها في حفظ الدين؟.

إن أمة العرب كأي أمة سابقة لها لا بد وأن ينطبق عليها حال هذه الأمم. ومن المعروف أن الأمم السابقة كانت تمر بحالة تراجع عن الدين (ردة) بعد رحيل الرسول الذي كلف بالدعوة فيها مما كان يقتضي إرسال رسول جديد. فما الذي سوف يقوم هذا الانحراف؟..

لا بد وأن هناك قدوة حسنة تحل محل الرسول من بعده ترجع إليها الأمة؟.

وإذا كان موسى (ع) عندما غاب عن قومه ليأتي بالألواح وضع أخاه هارون مكانه ليخلفه في قومه حتى يعود إليهم. أليس من الأولى بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يفعل نفس الشئ في قومه خاصة وأنه يعلم أنه لا نبي بعده؟.

قد يطرأ على الذهن أن الرسول قد ترك القرآن الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة وهذا وحده كاف لسد الفراغ الذي أحدثه غيابه. والقرآن هو أفضل قدوة..

وأمام هذا الاستنتاج تطرح تساؤلات أخرى:

إن الرسل قد تركوا كتبا بين أقوامهم قبل رحيلهم ومع ذلك انحرفت هذه الأقوام. وبنوا إسرائيل على وجه المثال حرفوا الكلم عن مواضعه. أي أن

انحرافهم تجاوز حدود السلوك الشخصي إلى تحريف الكتاب الذي ورثوه عن الرسول. وهذا يدل على أن الكتاب وحده لا يكفي لضبط حركة الأمة من بعد الرسول فلا بد أن تكون إلى جواره قوة تنفيذية مميزة ترجع إليها الأمة حال الخلاف والانحراف؟..

هذه القوة هي الفئة المصطفاة من الأمة التي ترث الكتاب من بعد الرسول كما هو حال الأمم السابقة..

وهي ما يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ (فاطر: ٣٢) فلو كان الكتاب وحده يكفي ما أورثه سبحانه للفئة المصطفاة التي هي القدوة من بعد الرسول.

والقرآن لم يحسم الخلاف والردة التي وقعت بعد وفاة الرسول مباشرة وإنما حسم هذا الأمر بواسطة السيف. فالقرآن حاله كحال الكتب السابقة له لا بد وأن تنحرف عنه الأمة. وهو لم يحكم في الخلافات التي وقعت حول مسألة الخلافة. كما لم يحكم في مواجهة القبائل التي اعتبرت مرتدة وقوتلت على هذا الأساس. ولم يحكم في قضايا أخرى كثيرة (٧)..

وبالإضافة إلى الخلاف الذي وقع حول جمعه بين الصحابة. يمكن طرح السؤال التالي:

أن القرآن الذي تركه الرسول لم يحل دون وقوع الردة والخلاف. فهل هذه الردة وقعت بسبب الانحراف عن القرآن أم الانحراف عن القدوة؟..

أن التاريخ يجيب مؤكدا أن السبب المباشر لهذه الردة كان بسبب الانحراف عن القدوة وليس بسبب القرآن..

فالذين منعوا الزكاة كانوا مسلمين..

والرافضون بيعة أبي بكر كانوا مسلمين (٨)..

فهم كانوا مسلمين ملتزمين بالقرآن مؤمنين به إلا أن هذا الإيمان وهذا الالتزام لم يحل دون انحرافهم..

من هنا بدأت رحلة البحث عن هذه القدوة المتميزة. وهذه الرحلة كان

اعتمادي وزادي فيها هو النصوص فهي الحكم الوحيد بين أيدينا للخلاص من متاهات الرجال والوصول إلى الحق..

إن الحق إنما يعرف بالنص لا بالرجال. والرجال إنما يعرفون بالحق لا العكس. وما دمت معتقدا أن النص فوق الرجال فقد تكشفت أمامي معالم الطريق.

ـ التراث السني والتراث الشيعي

هناك عدة قضايا مشتركة بين التراث السني والشيعي..

وهناك أيضا عدة قضايا تفرض التباعد وعدم التلاقي..

وأثناء رحلتي الطويلة مع التراث كانت تستوقفني الكثير من الروايات والاجتهادات والأقوال التي تبعث الشك في نفسي على مستوى تراث السنة وتراث الشيعة..

كان التراث السني يحمل كما كبيرا من الروايات المختلقة والموضوعة..

والتراث الشيعي كذلك..

وكان التراث السني يحمل داخله عدة أطروحات مختلفة ومتناحرة..

والتراث الشيعي كذلك..

إذن ما الذي يميز تراثا عن الآخر؟..

والإجابة على هذا السؤال تقتضي أن نحدد ملامح الخلاف بين التراثين..

أن التراث السني يعتمد على الصحابة..

بينما التراث الشيعي يعتمد على آل البيت..

والتراث السني يتبنى التعايش مع الحكام..

بينما التراث الشيعي يرفض هذا التعايش..

التراث السني تغلب عليه أقوال الرجال..

بينما التراث الشيعي يغلب عليه النص..

التراث السني نتج من حالة سلام مع الواقع..

بينما التراث الشيعي في حالة صدام معه..

التراث السني يضيق على العقل..

والتراث الشيعي يحترم العقل..

وبهذه المقارنة يتضح لنا مدى الهوة التي تباعد بين التراثين. إلا أن التراث الشيعي كحال أي تراث لا بد وأن تطرأ عليه متغيرات نتيجة لتراكم الأقوال والاجتهادات النابعة منه بحيث يصبح متشابها إلى حد كبير مع التراث السني..

من هنا برزت الروايات الموضوعة عند الطرفين..

وبرزت المذاهب في إطار الفكر الواحد..

أبرز التراث السني الكثير من الروايات التي ترفع من قدر الصحابة وتضخم بعضهم وأبرز التراث الشيعي الكثير من الروايات التي ترفع من قدر آل البيت وتضخمهم وعند كلا الطرفين ظهر الوضع والاختلاق..

ولقد تبين لي أن القاعدة التي وضعت من قبل الشيعة لضبط حركة الرواية ووقف عملية الوضع والاختلاق هي أدق وأكثر ارتباطا بالنص من قاعدة السنة..

قاعدة الشيعة تنص على أن الحديث الذي يخالف القرآن والعقل يضرب به عرض الحائط. بينما قاعدة السنة تعتمد على علم الرجال والبحث في سند الرواية..

قاعدة الشيعة تركز على متن الرواية..

بينما قاعدة السنة تركز على سندها..

وعلى ضوء قاعدة الشيعة تم نبذ الكثير من الروايات في التراث الشيعي ومحاكمة الروايات الأخرى ووضعها تحت دائرة الضبط والتنقيح..

وعلى ضوء قاعدة السنة تم اعتماد الكثير من الروايات رغم مخالفتها لنصوص القرآن ومصادمتها للعقل بسبب أن سند هذه الروايات سليم ورجاله رجال الصحيح. أي أنه ما دامت قد ثبتت عدالة الرواة فقد ثبتت صحة الرواية ولو

كانت تخالف القرآن..

إن قاعدة الشيعة سوف ينتج عنها غربلة التراث وتنقيحه. بينما قاعدة السنة سوف ينتج عنها إبقاء التراث على حاله وزيادة حدة التباعد بينه وبين القرآن والعقل..

ولقد كان تبني الشيعة لقضية الإمامة قد ميز التراث الشيعي عن التراث السني وأوجد الكثير من الاجتهادات والمواقف التي انعكست على الفقه والعقيدة والتصور الشيعي بشكل عام. ومن أبرز نتائجها حصر مصدر التلقي في دائرة آل البيت المقصودين بالإمامة. ورفض الخطوط الأخرى التي خالفت نهجهم وعلى رأسها خط الصحابة الذي أرسى دعائمه أبو بكر وعمر..

وأهم ما سوف ينبني على قاعدة تحكيم القرآن والعقل هو تحجيم دور الرجال وعزل أقوالهم عن النصوص والحيلولة دون طغيان هذه الأقوال عليها. وهي من أهم مميزات التراث الشيعي على التراث السني الذي بفقده هذه القاعدة تغلب الرجال على النصوص. إن عزل القرآن والعقل عن التراث والحيلولة دون أن يقوما بدورهما كحكمين عليه إنما هي مؤامرة على الإسلام من اختراع السياسة الهدف منها إمرار الروايات المختلقة والموضوعة التي سوف تسهم في صياغة الإسلام وطمس هويته الحقة وإبدالها بهوية زائفة تخدم مصالح الحكام وتضفي المشروعية عليهم..

تحكيم القرآن والعقل يعني الانتماء للنص لا للتراث..

والنص هو الحكم على التراث وليس العكس..

من هنا فإن الرجال عند الشيعة إنما هم تحت النصوص وليسوا فوقها.

وهذا ما استراح إليه عقلي واطمأنت به نفسي إنني عندما تبنيت الأطروحة الشيعية لم أستبدل تراثا بتراث. ولم أنتقل من عبادة رجال إلى عبادة رجال..

عندما التزمت بخط آل البيت (ع) إنما التزمت بخط النص لا بخط الرجال..

هوامش

---

(١) - أنظر كتاب دعاة لا قضاء الذي صدر عن جماعة الأخوان في مواجهة تيار التكفير. وانظر كتابنا الحركة الإسلامية في مصر.

(٢) - نص الحديث هو (لا تنكح المرأة على عمتها أو خالها) البخاري كتاب النكاح.

(٣) - يقف الحكام على الدوام وراء جميع النزعات المذهبية بهدف تشتيت الأمة سيرا مع مبدأ فرق تسد.

(٤) - أنظر الفصول القادمة من هذا الكتاب.

(٥) - أنظر باب القرآن من هذا الكتاب.

(٦) - أنظر باب القرآن.

(٧) - أنظر كتابنا السيف والسياسة وكتب التاريخ.

(٨) - أنظر المراجع السابقة.

رحلة الشك

ومن الشك يأتي اليقين

كان عقلي لا يستريح لكثير من أطروحات التراث على مستوى الفقه والتفسير والتأريخ وحسن الحديث النبوي المنسوب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

من هنا فقد تبنيت منهج الشك وجعلته شعاري وأنا أخوض في كتب التراث بحثا عن الحقيقة ولم يكن البحث بالأمر السهل فقد طغت على النصوص أقوال الرجال بحيث أصبح التفريق بينهما أمرا في غاية الصعوبة. إلا أن صعوبته سرعان ما تتبدد إذا تسلح الباحث بمنهج الشك ذلك المنهج الذي كشف لي الكثير من الحقائق حول التراث والأطروحة الإسلامية المعاصرة والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- أن أقوال الخليفة الأول والثاني تحولت إلى نصوص قطعة وسنة أبدية في فقه القوم.

- أن الاجماع هو الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها أغلب أطروحات التراث إن لم نقل جميعها.

- أن هناك الكثير من النصوص المنسوبة للنبي تفوح منها رائحة السياسة وتصطدم بالعقل وقواعد الإسلام وحقائق ثابته..

- أن هناك تشويها متعمدا لشخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

- أن هناك موقفا عدائيا من جميع الأطروحات والاجتهادات والشخصيات التي

خالفت الخط السياسي السائد وأن هذا الموقف تلحف بالإسلام..

- أن هناك تضخيما لمواقف وشخصيات معينة على حساب شخصيات أخرى..

- أن هناك شبهات سياسية تحوم حول رواة الأحاديث وعملية تدوينها وجمعها..

- أن هناك تلميعا دائما للحكام وإخفاء المشروعية عليهم من قبل الفقهاء..

- أن حرية الرأي والحكم الإسلامي الصحيح لم يتحقق طوال فترات التاريخ الإسلامي..

ومثل هذه النتائج تكفي للشك في الأطروحة الإسلامية السائدة وتوجب ضرورة إعادة النظر فيها والعمل على تنقيتها مما علق بها من تراكمات تاريخية هي في مجملها من صنع السياسة ومن خضع لها من الفقهاء ومؤرخين والمحدثين وغيرهم..

وسوف نعرض هنا لبعض النماذج من النصوص التي قادتني إلى الشك واستوقفتني للتأمل فيها والتي بنيت على أساسها موقفي الرافض لهذه الأطروحة وهذا التراث الذي يدين به المسلمون.

ـ بنو أمية ـــــــــــــــــــــــــــــــــ

استوقفتني بعض الأحاديث الواردة في كتب السنة عن بني أمية. تلك الأحاديث التي تحذر الأمة من هذه الفئة وتكشف الدور الخطير الذي يهدد مستقبل الأمة والدين الذي سوف يلعبونه في ساحة الإسلام..

وإن كان معظم هذه الأحاديث قد وضعت في دائرة الشك والتضعيف من قبل علماء الحديث إلا أن ما يلفت النظر هنا هو تلك الأحاديث التي صححوها في بني أمية والتي تشير إلى أن لهم فضلا ومكانة ودورا بارزا في نصرة الإسلام..

ومن الأحاديث التي وردت في ذم بني أمية قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): " هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش " (١) ..

وفي راوية أخرى: " أن فساد أمتي على يدي غلمة سفهاء من قريش (٢)..

وقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت (٣).

وهناك عدة أحاديث وردت في لعن الحكم بن العاص وأولاده (٤)..

وقال أبو هريرة: حفظت وعاءين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعاء بثثته ووعاء لو بثثته لقطع هذا البلعوم (٥)..

وفي ترجمة الحكم بن العاص الأموي عم عثمان بن عفان يقول ابن حجر: نفاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الطائف وأعاده عثمان إلى المدينة في خلافته. ونقل أن النبي دعا عليه ولم يثبت ذلك - كلام ابن حجر - وروي أن الصحابة دخلوا على الرسول وهو يلعن الحكم بن العاص. فقالوا يا رسول الله ما له: قال: دخل على شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة فكلح في وجهه. فقالوا أفلا نلعنه نحن؟ قال: لا، كأني أنظر إلى بنيه يصعدون منبري وينزلونه. قالوا يا رسول الله ألا نأخذهم. قال: لا ونفاه رسول الله (٦)..

وروى الطبراني: كان الحكم يجلس عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا تكلم اختلج فبصر به النبي فقال: كن كذلك فما زال يختلج حتى مات قال ابن حجر في هذا الحديث: في إسناده نظر. وأخرجه البيهقي من هذا الوجه وفيه ضرار بن صرد وهو منسوب للرفض(٧)..

وروى ابن حجر عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه: قال كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فرأى الحكم بن العاص. فقال النبي: ويل لأمتي مما في صلب هذا (٨)..

وروي عن عائشة أنها قالت لمروان: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعن أباك وأنت في صلبه (٩)..

ويروي مسلم عن ابن عباس: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه (١٠)..

ويروي ابن حجر عن البغوي قال: كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال هذا كسرى العرب (١١)..

ويروي عن ابن أبي الدنيا: قال عمر إياكم والفرقة بعدي فإن فعلتم فاعلموا أن معاوية بالشام فإذا أوكلتم إلى رأيكم عرف كيف يستبدها منكم (١٢) ..

وكان أبو سفيان وولده معاوية يعاملان معاملة المؤلفة قلوبهم حتى عهد عمر الذي ألغى نصيب المؤلفة قلوبهم وولى معاوية على الشام (١٣) ..

أما الأحاديث التي وردت في مدح بني أمية فعلى رأسها الأحاديث التي تمدح الشام وأهلها وهي مقر بني أمية ومركز حكمهم كما هو معروف (١٤) ..

وروي عن عثمان أنه قال: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم (١٥) ..

ويحاول كتاب السنن اختلاق الفضائل لمعاوية وأبيه ورفع مكانتهم وتنقية صورتهم على لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

يروي مسلم أن أبا سفيان قال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يا نبي الله ثلاث أعطنيهن. قال نعم. قال عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها. قال نعم. قال ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك. قال نعم. قال وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال نعم (١٦) ..

ومثل هذه الرواية إنما تثير في النفس تساؤلات كثيرة في مقدمتها:

هل الفضائل تستجدى وتطلب أم تمنح من الرسول؟.

وما هي الفضيلة التي ينص عليها هذا الحديث لأبي سفيان؟.

وهل من الخلق أن يتحدث أبو سفيان مع الرسول بهذا الأسلوب عارضا ابنته عليه بصورة توحي وكأن للنساء مدخلا لقلبه؟.

ثم كيف يجيبه الرسول على مطالبه بهذه البساطة؟.

وكيف لمثل أبي سفيان أن يطلب أمرة المسلمين في القتال وهو محاط بالشك والكراهية من المؤمنين هو وولده؟.

إن مثل هذا الحديث يحمل مغالطة تأريخية خطيرة وهي أن الثابت من خلال كتب القوم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوج أم حبيبة قبل الهجرة.

وهذه إشارة قوية على وضع هذا الحديث وكونه من اختراع السياسة (١٧) ..

يروي مسلم أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى النبي فأخبره. فقال يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك (١٨) ..

وهذه رواية أخرى تؤكد التصور السابق وهو أن أبا سفيان لم يكن بصاحب مكانة حميدة بين صحابة رسول الله ولم يكن موضع احترام أحد إلا أذناب قريش من أهل القبلية والمنافقين والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا دافع أبو بكر عن أبي سفيان؟.

هل كان يجهل وضع هذا الرجل وتاريخه؟.

وهل كان أبو سفيان ما يزال شيخ قريش وسيدها؟.

إن رد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أبي بكر لهو أكبر دلالة على أن موقف هؤلاء الصحابة من أبي سفيان هو الموقف الشرعي وأن أبا بكر تجاوز هذا الموقف وانحرف عنه..

وجعل البخاري لمعاوية بابا أسماه باب ذكر معاوية ليس فيه شئ يحسب لمعاوية. فهو لا يحوي سوى رواية على لسان ابن عباس تشهد له بالصحبة تارة وبالفقه تارة أخرى (١٩)..

يقول ابن حجر معلقا على الباب بقوله: عبر البخاري بقوله ذكر ولم يقل فضيلة ولا منقبة لكون الفضيلة لا تؤخذ من حديث الباب لأن ظاهر شهادة ابن عباس له بالصحبة والفقه دالة على الفضل الكثير. ونقل عن إسحاق بن راهويه قوله: لم يصح في معاوية شئ. وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصح من طريق الإسناد وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنسائي وغيرهما (٢٠) ..

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي ما تقول في علي ومعاوية؟

فأطرق ثم قال: اعلم أن عليا كان كثير الأعداء ففتش أعداؤه له عيبا فلم يجدوا.

فعمدوا إلى رجل قد حاربه - معاوية - فأطروه - رفعوه - كيدا منهم لعلي..

وعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله: فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له (٢١) ..

يروي مسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسل ابن عباس وهو صبي في طلب معاوية. قال فجئت فقلت هو يأكل. ثم قال لي اذهب وادع لي معاوية. قال فجئت فقلت هو يأكل. فقال: لا أشبع الله بطنه (٢٢) .

وقد فسر بعضهم هذا الحديث لصالح معاوية واعتبر أن دعاء الرسول على معاوية يعني صحة الجسم بحيث تبقى شهيته مفتوحة على الدوام للطعام. كما وضع مسلم هذه الرواية تحت باب أسماه باب من لعنه الرسول أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة (٢٣) ..

ولقد كانت هذه الرواية هي السبب المباشر في مصرع النسائي المحدث على يد أنصار معاوية بالشام حين طلبوا منه أن يكتب كتابا في معاوية وأبى (٢٤) ..

ويبدو من هذا الطرح أن هناك محاولات بائسة من فقهاء يدينون بالولاء لبني أمية من أجل رفع مكانة هذه العائلة وإضفاء المشروعية على خطها وممارساتها..

وكانت هذه الروايات بالإضافة إلى هذه التفسيرات الدافع الأساسي الذي دفعني إلى الشك في جميع الروايات المتعلقة بالفضائل والعمل على بحثها وضبطها بميزان القرآن والعقل مما أوصلني إلى النتائج التالية:

*- أن معظم الروايات التي تدور حول فضائل الصحابة لا تشير إلى منقبة واضحة محددة (٢٥) ..

* - أن هذه الروايات تروى على الأغلب على لسان أصحاب الفضائل أنفسهم (٢٦) ..

*- إن فحص سيرة هؤلاء يكشف إن مثل هذه الفضائل لا تخصهم وربما قصد بها سواهم (٢٧) ..

*- إن الأضواء والروايات مسلطة على نماذج ورموز معينة من الصحابة بينما هناك رموز لها مكانتها ودورها البارز لم تحظ بشئ من هذه الروايات (٢٨) ..

*- أن معظم أصحاب الفضائل كانوا من أنصار معاوية وخط بني أمية (٢٩)..

*- أن هناك روايات صريحة في الإمام علي وآل البيت تتضاءل أمامها قيمة هؤلاء وتكشف أن هناك ميزة وخصائص اختصوا بها دون بقية الصحابة (٣٠) ..

*- أن هناك محاولات متعمدة للطعن في الإمام علي والتقليل من شأنه (٣١)..

هوامش

---

(١) - أنظر البخاري كتاب الفتن الباب الثالث.

(٢) - المرجع السابق.

(٣) - المرجع السابق.

(٤) - روي هذا اللعن على لسان عائشة كما سوف نبين.

(٥) - البخاري. كتاب العلم.

(٦) - أنظر كتاب الإصابة في تمييز الصحابة (ج ١ رقم الترجمة ١٧٨١٧.

(٧) - المرجع السابق.

(٨) - المرجع السابق.

(٩) - المرجع السابق.

(١٠) - مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي سفيان.

(١١) - الإصابة ترجمة معاوية.

(١٢) - المرجع السابق.

(١٣) - أنظر تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي. وكتب التاريخ

(١٤) - ذكر ابن عساكر في تاريخه الكثير من هذه الأحاديث وهي ضعيفة وإلى الوضع أقرب ويروي أحمد في مسنده قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم.

(١٥) - ابن كثير / البداية والنهاية ج.

(١٦) - مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل أبي سفيان.

(١٧) - أنظر كتب سيرة الرسول. وهناك رواية مشهورة في هذه الكتب عن صدام وقع بين أبي سفيان وابنته حين قدم المدينة ورفضت استقباله في بيتها.

(١٨) - مسلم كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل صهيب وسلمان وبلال.

(١٩) - هناك روايتان في البخاري على لسان ابن عباس الأولى تقول عن معاوية حين أوتر بركعة واحدة واستفز هذا الأمر مولى ابن عباس: دعه فإنه قد صحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)).

والثانية تقول: إنه فقيه. ويذكر أن مسلم لم يذكر عن معاوية شيئا..

(٢٠) – فتح الباري (ج ٧ / ١٠٧). وقد قال إسحاق بن راهويه أستاذ البخاري: لم تصح في معاوية منقبة.

(٢١) – المرجع السابق. وانظر مسند أحمد.

(٢٢) – مسلم كتاب البر والصلة والآداب. باب من لعنه النبي أو دعا عليه أو سبه.

(٢٣) – أنظر المرجع السابق.

(٢٤) – قتل النسائي على يد أنصار معاوية سنة ٣٠٣ هـ وكان قد كتب كتابا اسمه خصائص الإمام علي ورفض أن يكتب كتابا في معاوية واحتج بالحديث المذكور وقال ألا ترضون إلا رأسا برأس.

(٢٥) – أنظر فصل تضخيم الرجال.

(٢٦ – ٣١) – أنظر الفصل السابق ذكره..

التأويل والتبرير

من خلال اطلاعاتي في كتب التراث كنت اكتشف الكثير من النصوص التي أفلتت من رقابة القوم وشكلت حرجا كبيرا للفقهاء وأصبحت نقطة ضعف في أطروحتهم..

إلا أن القوم لم يستسلموا لهذه النصوص وإنما حاصروها بتأويلاتهم التي حلت محل النص في النهاية وغطت عليه..

وهذه التأويلات إنما كان الهدف منها تحصين المسلمين وربطهم بالخط السائد من جهة. ومن جهة أخرى إغلاق الباب أمام التيارات المعارضة والحيلولة بينها وبين استخدام هذا النص لصالحهم وضربهم به..

ولم ينحصر مأزق القوم في حدود النصوص وحدها بل امتد إلى كثير من الوقائع التأريخية التي ارتبطت بالصحابة والتابعين والحكام والتي فتحت ثغرة كبيرة للطعن في أطروحتهم والتشكيك فيها وفي مواجهة هذه الوقائع اضطروا إلى تبني منهج التبرير. أي خلق دوافع تبرز وقوع الحدث على غير الوجهة التي يوحى بها ظاهره..

ونظرا لأن هناك الكثير من المواجهات الفكرية والصدامات العقائدية التي وقعت بين الأطروحة السائدة والأطروحات الأخرى على مر التاريخ كان النصر فيها بالطبع للأطروحة السائدة فهي المتمكنة على ساحة الواقع المدعومة من الحكام. فقد دفع القوم دفعا إلى تبني سلاح التأويل والتبرير لتقوية الأتباع ودفع

الخصوم..

إن هذه التأويلات والتبريرات لا تخرج عن كونها مسكنات يحاول القوم أن يخدروا بها جماهير المسلمين ويطمئنوا الحكام. إلا أن هذه المسكنات مع مرور الزمن سرعان ما سوف تتلاشى وتتكشف الحقائق أمام الجميع كما تكشفت لي..

وفي مقدمة النصوص التي أحرجت القوم واضطروا إلى تأويلها تلك النصوص الواردة في الإمام علي وأهل البيت وهي صحيحة في أغلبها حسب قواعد هم.
فهذه النصوص تضع الإمام في مكانة خاصة ترفعه فوق جميع الصحابة. وهي من جهة أخرى تكشف أن له ولأهل البيت دورا خاصا في واقع الأمة. ذلك الدور الذي حالت السياسة دون بروزه. وتلك هي القناعة التي خرجت بها بعد اطلاعي على تأويلات القوم لهذه النصوص وكذلك تبريراتهم للوقائع والأحداث التأريخية فقد ازددت يقينا أنهم يحاولون لي أعناق النصوص وتقويم حركة التأريخ..

يروي مسلم قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " ثم يعلق على النص بقوله:
والمستدل بهذا الحديث على أن الخلافة بعد له بعد رسول الله زائغ عن منهج الصواب فإن الخلافة من الأهل في حياته لا تقتضي الخلافةمن الأمة بعد مماته (١) ..

ويروي أيضا قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم خيبر: " أعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي عليا. فأتي به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه.. ".

ويعلق مسلم على هذا الحديث بقوله: هذا من أعظم فضائل علي وأكرم مناقبه (٢) ..

ولما نزلت آية المباهلة وهي قوله تعالى: ﴿ **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم** ﴾ (آل عمران: ٦١) دعا الرسول عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهلي (٣) ..

ويروي مسلم: قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما

بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. فقال له حصين - أي لزيد بن أرقم الراوي - ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟..

قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده..

قال: ومن هم؟.

قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس..

قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟.

قال: نعم (٤) ..

وفي رواية أخرى أجاب زيد على سؤال حصين بقوله: لا وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده (٥) ..

وروى البخاري قول الرسول لعلي: أنت مني وأنا منك (٦) ..

وروى مسلم قول علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلي، أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق (٧) ..

ويروي النسائي والترمذي قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): من كنت مولاه فعلي مولاه (٨) ..

وينقل ابن حجر قول أحمد والنسائي وإسماعيل القاضي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي (٩) ..

وكان ابن سيرين يرى أن عامة ما يروى عن علي الكذب (١٠) ..

ويقول ابن حجر معلقا على كلام ابن سيرين: والمراد بذلك ما ترويه الرافضة عن علي من الأقوال المشتملة على مخالفة الشيخين (١١) ..

وقال ابن حجر معلقا على حديث: أنت مني بمنزلة هارون من موسى.

واستدل - أي بهذا الحديث - على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة فإن هارون كان خليفة موسى. وأجيب بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته. لأنه مات قبل موسى باتفاق (١٢) ..

وقال عن حديث الراية: وقوله - أي الرسول - أن عليا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله أراد بذلك وجود حقيقة المحبة. وإلا فكل مسلم يشترك مع علي في مطلق هذه الصفة وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ (آل عمران: **٣١**) فكأنه أشار إلى أن عليا تام الاتباع لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى اتصف بصفة محبة الله له ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق (١٣) ..

والقوم على ما هو واضح من حديث غدير خم في حيرة من أمرهم أمام قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): أذكركم الله في أهل بيتي. ولم يجدوا وسيلة لضرب هذا النص سوى تأويل المعنى المقصود بآل البيت فتارة يعرفونهم في حدود علي وفاطمة والحسن والحسين كما أقر بذلك مسلم في آية المباهلة وتارة يعرفونهم بآل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس..

وتارة أخرى يدخلون معهم نساء النبي وتارة يخرجونهم كما هو واضح من إجابتين متناقضتين لسؤال واحد في رواية واحدة. والهدف من ذلك هو تمييع فكرة آل البيت وتشتيتها بين نساء النبي وبني هاشم فتشتت القدوة أمام المسلمين ويفتح الباب بالتالي أمام القدوة الفاسدة لتحل محلهم..

ويبدو أن مسلم لم يسترح لهذه الرواية فقام بنقل رواية أخرى في حجة الوداع وهي في نفس المكان السابق ذكره - غدير خم - ليس فيها ذكر لآل البيت (١٤)..

وحتى يتم التمويه على آل البيت وحجبهم عن المسلمين اخترعوا رواية تناقض رواية غدير خم وتضرب وصية الرسول بآل البيت..

يروي مالك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي (١٥).

ولقد اشتهرت رواية مالك على ألسنة القوم ومنابرهم وكتبهم بينما حجبت رواية مسلم حتى أصبح ذكرها محل استنكار ورفض (١٦) ..

وفي مواجهة الأحاديث الواردة حول الأئمة الاثني عشر الواردة في مسلم اضطر القوم إلى صرفها عن معناها وتحويلها نحو الحكام حتى لا تكون حجة عليهم من قبل خصومهم الشيعة (١٧) ..

وقد حدد الفقهاء الأئمة الاثنا عشر الذين بشر بهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وربط عزة الإسلام بهم في دائرة الخلفاء وحكام بني أمية. فأولهم أبو بكر - ثم عمر - ثم عثمان - ثم - علي - ثم معاوية ثم يزيد بن معاوية ثم عبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشام ثم عمر بن عبد العزيز وبعدهم أخذ الأمر في الانحلال (١٨)..

وبتفحص سيرة هؤلاء دون سيرة الإمام بالطبع سوف يتبين لنا أنه لا تتوافر في أحدهم أدنى صفات الإمامة وأن هؤلاء لا يخرجون عن كونهم مجرد حكام طبق عليهم الفقهاء النص تحت ضغط السياسة ولصرف المسلمين عن أئمة آل البيت الذين يقصدهم النص والذين تنطبق سيرتهم وصفاتهم على النص المذكور (١٩) ..

ولقد تبين لي أن فقهاء القوم يتتبعون الروايات الواردة في آل البيت والروايات التي تساندهم ويعمدون إلى تأويلها وتبريرها حتى يغلقوا باب الشك حول خطهم وأطروحتهم..

ففي مواجهة رواية غضب فاطمة وهجرها لأبي بكر فلم تكلمه حتى ماتت.

ينقل ابن حجر أقوال الفقهاء حولها على النسق التالي:

فلم تكلمه: أي فلم تكلمه في ذلك المال.

أن فاطمة حملت كلام أبي بكر على أنه لم يسمع ذلك من رسول الله وإنما سمعه من غيره ولذلك غضبت.. ومن قول فاطمة لأبي بكر وعمر لا أكلمكما أي في هذا الميراث (٢٠) ..

ونقل عن بعضهم: إنما كانت هجرتها انقباضا عن لقائه والاجتماع به وليس ذلك من الهجران المحرم.. وأما سبب غضبها مع احتجاج أبي بكر بالحديث فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا نورث. ورأت أن منافع ما خلفه من أرض وعقار لا يمتنع أن تورث عنه. وتمسك أبو بكر بالعموم. واختلفا

في أمر محتمل للتأويل. فلما صمم على ذلك انقطعت عن الاجتماع به لذلك (٢١) ..

وينقل ابن حجر رواية تفيد أن فاطمة تصالحت مع أبي بكر. ويعلق على الرواية بقوله: وهو - أي الحديث - وإن كان مرسلا فإسناده صحيح وبه يزول الإشكال في جواز تمادي فاطمة على هجر أبي بكر (٢٢)..

والهدف من وراء جميع هذه التبريرات كما هو واضح هو تبرئة أبي بكر وإضفاء المشروعية على موقفه المعادي لآل البيت والذي كانت أولى نتائجه هو حرمان السيد فاطمة من ميراث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).. وفقهاء التبرير إنما يهدفون من تبريراتهم هذه أيضا إضفاء صفة العلم على أبي بكر تلك الصفة التي سوف ينبني عليها تلقائيا جهل الطرف الآخر وعدم إلهامه بعلم الرسول وأحكام الدين وهو طرف السيدة فاطمة والإمام علي (٢٣) ..

ومن أخطر نتائج فقه التبرير مساواة الفقهاء القوم معاوية بالإمام علي واعتبار معاوية مجتهدا مخطئا مثابا على ما فعل من جرائم ومنكرات معتمدين في ذلك على حديث منسوب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران. وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " (٢٤)..

وهذا النص طبقه فقهاء القوم في محيط الأحكام الشرعية إلا أن السياسة اقتضت استثماره في دعم موقف معاوية وإضفاء المشروعية علية (٢٥) ..

ولقد أثارت مسألة مساواة معاوية بالإمام الشكوك في نفسي وتقوت هذه الشكوك بالموقف المشرف للنسائي صاحب السنن الذي قتل شهيدا بسبب عدم اعترافه بمنقبة لمعاوية واعتبره نكرة من المستقبح أن يتساوى مع الإمام (٢٦) ..

ونظرا لكون معاوية يعد من الصحابة في عرف فقهاء القوم والصحابة عدول فمن ثم يجب تبرير جميع مواقفه وممارساته وحملها على المحمل الحسن (٢٧) ..

ومثل هذا الموقف التبريري تبناه فقهاء القوم تجاه يزيد بن معاوية قاتل الحسين ومنتهك حرمات مدينة رسول الله حيث بررت أفعاله القبيحة من قبل ابن تيمية وابن كثير وابن خلدون، يقول ابن تيمية عن يزيد: كان من شبان المسلمين ولا كان كافرا ولا زنديقا تولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضا من بعضهم وكان فيه شجاعة وكرم ولم يكن مظهرا للفواحش كما يحكي عنه خصومه

وهو لم يأمر بقتل الحسين ولا أظهر الفرح بقتله ولا نكت بالقضيب على ثناياه ولا حمل رأس الحسين إلى الشام. لكن أمر بمنع الحسين وبدفعه عن الأمر ولو كان بقتاله فزاد النواب على أمره وحض الشمر والجيوش على قتله لعبيد الله بن زياد فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد فطلب منهم الحسين أن يجئ إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر مرابطا أو يعود إلى مكة فمنعوه وأمر عمر بن سعد بقتاله فقتلوه ظلما له ولطائفة من أهل بيته (٢٨) ..

وبقدر ما كنت أجل هذا الرجل المدعو ابن تيمية وأكن له احتراما عظيما طوال فترة نشأتي الإسلامية بقدر ما أصبحت أبغضه وأحط من قدره بعد تبين موقفه من يزيد الملعون..

ولقد تمادى ابن تيمية في موقفه المتحالف مع بني أمية حتى أنه خطأ الحسين وانتقده لخروجه على يزيد ملقيا عليه بتبعة مأساة كربلاء (٢٩) ..

وابن تيمية بالإضافة إلى دفاعه عن يزيد وإنكاره الروايات التي تطعن فيه وتبرئته من دم الحسين هو من جهة أخرى يمتهن الحسين ويحط من قدره ويصوره بصورة المتخاذل عديم المبدأ حين يقر الرواية التي تقول أن الحسين عرض على جيش يزيد ثلاثة عروض جميعها تدينه وتثير الشبهات من حوله..

إن منهج التأويل والتبرير هو الأساس الذي بني عليه منهاج القوم وعقائدهم ولم يكن مجرد طرح عابر في مذهبهم وإنما كان سلاحهم الذي يشهرونه في وجه خصومهم وفي وجه المسلمين الذين ينتابهم الريب في رواياتهم ومواقفهم وأحداث التأريخ بوجه عام..

وعقيدة تقوم على التبرير والتأويل عقيدة واهية مهزوزة لا بد للعقل من أن يلفظها يوما، يروي البخاري قول الإمام علي: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة (٣٠) ..

وقد قام البخاري بوضع هذا النص في كتاب المغازي وربطه بقوله تعالى: ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ (سورة الحج: ١٩)، محددا أن المتخاصمين هم الذين تبارزوا يوم بدر وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبه. مشيرا إلى أن الآية نزلت في هؤلاء الستة (٣١) ..

يقول ابن حجر معلقا على قول الإمام: المراد بهذه الأولية تقييده - أي علي - بالمجاهدين من هذه الأمة لأن المبارزة المذكورة أول مبارزة وقعت في الإسلام (٣٢) ..

فكل من البخاري وابن حجر عملا على تقييد قول الإمام وتخصيصه بغزوة بدر كمبرر للهروب من مدلوله مع أن فقهاء القوم يرفعون شعارا يقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب..

هوامش

---

(١) - مسلم شرح النووي. كتاب فضائل الصحابة. باب من مناقب علي.

(٢) - المرجع السابق. وهذا ما فقهه النووي من هذا الحديث غير أنه لا يريد أن يفهم منه ما يفيد مكانة الإمام ودوره الخاص.

(٣) - المرجع السابق.

(٤) - المرجع السابق.

(٥) - المرجع السابق.

(٦) - البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب الإمام علي. وانظر سنن ابن ماجة ج ١ / ٤٢.

(٧) - أنظر مسلم كتاب الإيمان. باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان وعلاماته. وبغضهم من علامات النفاق. وانظر الترمذي كتاب المناقب. ومناقب الباري ج ٧ / ٧٢.

(٨) - وانظر مسند أحمد بن حنبل ج ١ / ٨٤. وقال السيوطي في هذا الحديث أنه متواتر.

(٩) - أنظر فتح الباري ج ٧ / ٧٤.

(١٠) - المرجع السابق ص ٧٤.

(١١) - المرجع السابق ص ٧١.. ويقول ابن حجر: فصار الناس في حق علي ثلاثة: أهل السنة والمبتدعة من الخوارج والمحاربون له من بني أمية وأتباعهم. فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك. وإلا فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة - أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة.. وكلام ابن حجر إنما يهدف إلى تمييع النصوص الواردة في الإمام علي وإيهام المسلم أنه لا يتميز عن الثلاثة الذين سبقوه. ثم أنه عند الحديث عن مواقف الناس تجاه الإمام أغفل الشيعة تماما وحصر هذه المواقف في دائرة الخوارج وأهل السنة وبني أمية فقط.. ولا يمكن أن يكون هذا سهوا بالطبع.

(١٢) - أنظر فتح الباري ج ٧ / ٧٤.

(١٣) - المرجع السابق.

(١٤) – أنظر مسلم والرواية تنص على أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى بكتاب الله فقط.

(١٥) – ورواه الحاكم في مستدركه أيضا.

(١٦) – في حواراتي الكثيرة مع رموز القوم كثيرا ما كنت اكتشف جهلهم بحديث العترة وإنكارهم له وكانوا يصابون بالدهشة حين يكتشفون وجود الحديث في مسلم.

(١٧) – من هذه الأحاديث قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة.. وقوله: أن هذا الأمر – الدين – لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة.. أنظر مسلم. كتاب الإمارة. وانظر البخاري كتاب الأحكام (باب ٥١).. وانظر مقدمة تأريخ الخلفاء للسيوطي..

(١٨) – أنظر شرح العقيدة الطحاوية. وفتح الباري (ج ١٣) أخر كتاب الأحكام. وشرح النووي لمسلم. والقوم قد جعلوا الإيمان بهؤلاء الاثني عشر من أصول الإعتقاد.

(١٩) – إن أئمة آل البيت الذين قصدهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأغفلهم القوم تحت تأثير السياسة هم:

الإمام علي بن أبي طالب. والإمام الحسن بن علي. والإمام الحسين بن علي. والإمام علي بن بن الحسين زين العابدين. والإمام محمد بن علي الباقر. والإمام جعفر بن محمد الصادق. والإمام موسى بن جعفر الكاظم. والإمام علي بن موسى الرضا. والإمام محمد بن علي الجواد. والإمام علي بن محمد الهادي. والإمام الحسن بن علي العسكري. ثم الإمام المهدي المنتظر.. أنظر سيرة هؤلاء الأئمة في كتاب أعيان الشيعة لمحسن الأمين. وسلسلة حياة الأئمة لباقر شريف القرشي. وسيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني. والتاريخ الإسلامي لمحمد تقي المدرسي. والقوم يمرون على سيرة هؤلاء الأئمة مرور الكرام في كتب التأريخ. أنظر الكامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير.

(٢٠) – أنظر فتح الباري (ج ٦ / ٢٠٢).

(٢١) – أنظر المرجع السابق.

(٢٢) – المرجع السابق.

(٢٣) – أنظر الخلاف حول ميراث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بتوسع في البداية والنهاية لابن كثير. وفدك في التأريخ لباقر الصدر. وكتب التأريخ.

(٢٤) – أنظر البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب ٢١.

(٢٥) – أنظر تأريخ وقعة صفين في كتب التأريخ والفصل في الملل والنحل لابن حزم. والملل والنحل للشهرستاني. والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي.

(٢٦) – توفي النسائي عام ٣٠٣ هـ على أيدي الشوام. أنظر ترجمة النسائي في وفيات الأعيان لابن خلكان وكتب التراجم الأخرى. وكان النسائي قد ألف كتابا أسماه خصائص الإمام علي وكان هذا الكتاب سبب مصرعه. أنظر الخصائص طبعة القاهرة أو بيروت؟.

(٢٧) – أنظر البداية والنهاية وفتاوي ابن تيمية (ج ٣ / ٤١١) والعواصم من القواصم وتأريخ ابن خلدون. وتنص عقائد القوم على عدم ذكر الصحابة إلا بخير. وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من

أهل الجنة قطعا. ويقول الإسفرائيني: والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل واحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم.. أنظر عقيدة الإسفرائيني. ويقول ابن أبي زرعة العراقي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأعلم أنه زنديق.. أنظر عقيدة الإسفرائيني. والقوم بهذا إنما يهدفون إلى إرهاب المسلمين حتى لا يخوضوا في معاوية وأمثاله من الدخلاء على الصحابة.

(٢٨) – أنظر فتاوي ابن تيمية (ج ٣ / ٤١١).

(٢٩) – أنظر المرجع السابق (ج ٣٥).

(٣٠) – البخاري. كتاب المغازي. باب قتل أبي جهل.

(٣١) – أنظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٩٧).

(٣٢) – المرجع السابق.

الرسول والنساء

كنت أتصور أن المستشرقين يتجنون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يتهمونه بحب النساء والشغف بهن وأنه رجل جنس. وأن هذا الاتهام إنما يعكس الحقد الصليبي الذي يكنه أمثال هؤلاء للإسلام في شخص الرسول. حتى وقعت على مجموعة من الروايات في كتب السنن تدعم هذا الاتهام وتعذر أمثال هؤلاء..

ولقد وقفت طويلا أمام هذه الروايات متسائلا ما هو المبرر من روايتها. وما هو الهدف من ورائها. وهل يمكن أن تتفق مثل هذه السلوكيات والممارسات المنسوبة للرسول بخصوص النساء مع خلقه كنبي خاتم؟.

إنني أجزم أن أي مسلم مهما كان مستواه الفكري والخلقي لا يمكن أن يقبل أن يقال على رسوله مثل هذا الكلام. وأن تكون حياته الجنسية مفضوحة بهذا الشكل..

يروي البخاري عن أنس بن مالك قوله: أن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة (١)..

وفي غزوة خيبر كان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب فصارت إلى دحية الكلبي ثم صارت إلى النبي فأعتقها وتزوجها (٢) ..

وفي رواية لابن سعد: صارت صفية لدحية فجعلوا يمدحونها. فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأعطى بها دحية ما رضي (٣) ..

وفي رواية أخرى قال الرسول: أدعوه بها. فجاء بها – أي دحية – فلما نظر إليها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: خذ جارية من السبي غيرها (٤) ..

وأقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية. وأقام وليمة (٥)، ويروي البخاري أن نساء النبي بعثن إليه بفاطمة تقول: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر. فكلمته. فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى. فرجعت فأخبرتهن. فقلن إرجعي إليه فأبت أن ترجع. فأرسلن زينب بنت جحش فأتته. فأغلظت وقالت إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة . فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها. حتى أن النبي ينظر إلى عائشة هل تكلم؟ قال فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها (٦) ..

ويروي مسلم عن أم سلمة زوج النبي أنها قالت: بينما أنا مضطجعة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الخميلة معه إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنفست؟ قلت: نعم فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة وكانت هي والرسول يغتسلان في الإناء الواحد من الجنابة (٧) ..

وتروي ميمونة زوج النبي: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يضطجع معي وأنا حائض وبيني وبينه ثوب (٨) ..

وعن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضا أمرها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتأتزر ثم يباشرها (٩)..

وتجمع الروايات الواردة في كتب السنن أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عقد على عائشة وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي ابنة تسع (١٠)..

ويروي الصحابة عن الرسول قولهم: كنا نتحدث أن له – أي الرسول – قوة عشرين رجلا في الجماع (١١)..

وفي رواية ابن سعد أن رسول الله قال: قد أوتيت قوة سبعين رجلا في الجماع (١٢)..

ويروي ابن كثير أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد مفارقة سودة

بنت زمعة لكبر سنها. فقالت يا رسول الله لا تفارقني وأنا أجعل يومي لعائشة فتركها الرسول وصالحها على ذلك (١٣)..

ويروي البخاري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لا تؤذيني في عائشة. فإنه والله ما نزل الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها (١٤)..

ويروي مسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت. فدخل عليها رسول الله يوما فأطعمته ثم جلست تغلي رأسه فنام. أي نام في حجرها (١٥)..

إن المتأمل في هذه الروايات يتأكد له أن رسول الله كان شديد الشغف بالنساء حتى أنه كان يطوف على نسائه التسع في ليلة واحدة. وأن هذا السلوك الشهواني من قبله قد جعل الناس في المدينة يتحدثون عن قدرته الجنسية، فهل هذا يعني أن الرسول كان يطوف على نسائه علانية..؟.

وما معنى أن الرسول تسيطر عليه شهوته إلى الحد الذي يجعله يأخذ صفية من دحية ويدخل بها في الطريق دون حتى أن ينتظر دخول المدينة وهو قادم من حرب..؟.

ثم ما هذا العشق الغريب لعائشة دون بقية نسائه اللاتي غرن من هذا الوضع وأعلن احتجاجهن على استئثار عائشة بالرسول. وكيف بالرسول أن ينحاز إلى عائشة ضد بقية أزواجه. هل كان ذلك لكونها صغيرة السن. وبماذا يوحي مثل هذا الموقف..؟.

وما معنى فقدان الرسول للصبر على شهوة الجنس بحيث يضاجع زوجاته وهن حائضات..؟.

وكيف للرسول أن يعقد على طفلة عمرها ست سنوات ويدخل بها وعمرها تسع سنوات؟.

هل انقرضت نساء العرب؟ أم أن الرسول كان يهوى الأطفال..؟.

وماذا يفعل نبي خاتم بطفلة تلهو بالدمى..؟ (١٦).

هل مثل هذا التصرف يعود سببه لأجل إكرام صاحبه ابن أبي قحافة؟.

أليست هناك وسائل وأساليب أخرى يعبر بها الرسول عن حبه وتقديره لأبي بكر..؟.

وتأتي رواية ابن كثير لتزيد الطين بلة وتؤكد حقيقة عطش الرسول للجنس الذي افتقده في سودة بنت زمعة زوجته وكان يجده في عائشة..

ورواية البخاري الأخيرة يبدو وكأنها تؤكد أن الوحي كان يبارك مثل هذا السلوك من الرسول حتى أنه كان ينزل عليه وهو مع عائشة في لحاف واحد..

ورواية مسلم التالية أدهى وأمر. كيف للرسول أن يدخل على امرأة متزوجة وينام في حجرها وتغلي له رأسه..؟.

لقد نفر عقلي من هذه الروايات التي تصطدم أول ما تصطدم بقوله تعالى: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (القلم: ٤)، هذا الخلق العظيم الذي وصف به الله رسوله إنما يدل دلالة قاطعة على اختلاق مثل هذه الروايات وبطلانها..

وأن الذين اختلقوها إنما كانوا يهدفون من ورائها إلى تشويه شخصية الرسول لكي يمكن على ضوء هذا السلوك المنسوب للرسول تبرير سلوك الحكام وحكاياتهم مع النساء (١٧)..

ولقد بحثت بين شروح الفقهاء لكتب السنن عن فقيه واحد ينظر لهذه الروايات بعين الناقد مدافعا عن شخص الرسول فلم أجد إلا تبريرا وتأكيدا لمثل هذه السلوكيات..

يقول النووي معلقا على حديث طواف الرسول على نسائه بغسل واحد: وأما طواف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على نسائه بغسل واحد. فيحتمل أنه كان يتوضأ بينهما. وقد جاء في سنن أبي داود أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) طاف على نسائه ذات ليلة يغتسل عند هذه وعند هذه.. وهو محمول - أي الطواف - على أنه كان برضاهن أو برضى صاحبة النوبة إن كان نوبة واحدة (١٨)..

ونقل ابن حجر عن عياض قوله: أن الحكمة في طوافه عليهن في الليلة الواحدة كان لتحصينهن. وكأنه أراد به عدم تشوفهن للأزواج. إذ الاحصان له معان منها الإسلام والحرية والعفة. والذي يظهر أن ذلك إنما كان لإرادة العدل

بينهن في ذلك وإن لم يكن واجبا (١٩)..

ويعلق ابن حجر على قول عياض بقوله: وفي التعليل الذي ذكره نظر لأنهن - أي نساء النبي - حرم عليهن التزويج بعده وعاش بعضهن بعده خمسين سنة فما دونها وزادت آخرهن موتا على ذلك (٢٠)..

وبخصوص صفية بنت حيي يقول ابن حجر: فلما قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنها بنت ملك من ملوكهم ظهر له أنها ليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان في الصحابة مثل دحية وفوقه وقلة من كان في السبي مثل صفية في نفاستها. فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه واختصاص النبي بها فإن في ذلك رضى الجميع (٢١)..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان الرسول لا يعلم مكانة صفية بين قومها..؟ وفيما يتعلق بمباشرة الرسول لنسائه في الحيض قال النووي: وأما أحكام هذا الباب فاعلم أن مباشرة الحائض أقسام أحدها أن يباشرها بالجماع في الفرج فهذا حرام. والقسم الثاني: المباشرة فيما فوق السرة وتحت الركبة بالذكر أو بالقبلة أو بالمعانقة أو اللمس أو غير ذلك وهو حلال باتفاق العلماء. والقسم الثالث المباشرة فيما بين السرة والركبة في غير القبل والدبر وفيها ثلاث أوجه لأصحابنا أصحها وأشهرها أنها حرام..

وكل هذه الأقسام إنما هي مشتقة من أحاديث مباشرة الرسول لنسائه في الحيض..

وينقل ابن حجر الخلافات حول تاريخ وفاة خديجة وبناء الرسول بعائشة في عامها التاسع. وهل تزوج عائشة قبل سودة بنت زمعة أم تزوجها بعدها. ونقل قول الماوردي: الفقهاء يقولون: تزوج عائشة قبل سودة. والمحدثون يقولون: تزوج سودة قبل عائشة (٢٢)..

ويقول ابن كثير عن قصة مفارقة الرسول لسودة بسبب كبر سنها أنها لما وافقت على التبرع بيومها لعائشة تركها الرسول وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير**﴾ (النساء: ١٢٨) (٢٣)..

ويتبنى الفقهاء نفس النهج مع بقية الأحاديث المتعلقة بعلاقة الرسول مع نسائه فهم يركزون على تخريج الأحاديث وشرحها ورفع الإشكالات من حولها دون أن يحاولوا المساس بالمتن الذي لا يجوز نقده أو الطعن فيه ما دام السند صحيحا..

ومثل هذه الرؤية التي هي محل إجماع الفقهاء والمحدثين إنما فتحت الأبواب لاضطهاد العقل وتكبيله بنصوص منسوبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يجوز الاعتراض عليها أو تجاوزها. كما فتحت الأبواب أمام الأمة كي تتعبد بها وتبني على أساسها الكثير من المعتقدات التي أسهمت وما زالت تسهم في تأخر المسلمين وتقوية الحكام..

إن حصر نقد الحديث في دائرة السند فقط إنما هي مؤامرة على العقل وعلى الإسلام. وحتى نقد السند وضعت له قواعد خاصة تفوح منها رائحة السياسة لا تتيح للناقد ضرب الحديث أو الطعن فيه إلا ضمن حدود ضيقة (٢٤)..

وهؤلاء الفقهاء إنما بنوا موقفهم من هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث المتعلقة بشخص الرسول على أساس رؤيتهم لمسألة العصمة. فهم يرون أن الرسول معصوم فقط في حدود التبليغ وما دون ذلك فهو غير معصوم. وعلى ضوء هذا التصور يمكن تبرير سلوكيات الرسول مع نسائه على أنها سلوكيات تتعلق بالجانب البشري من شخصه ولا تأثير لها على الجانب النبوي (٢٥)..

من هنا فهم لا يجدون حرجا من أن يرووا على لسان الرسول نفسه أنه كان ينظر إلى النساء بشهوة حتى تقع المرأة في نفسه..

يروي مسلم: أن رسول الله رأى امرأة. فأتى امرأته زينب وهي تهمس فيئة لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه (٢٦)..

ومثل هذا الحديث لا يحتاج إلى تعليق سوى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد هان في نظر القوم وأصبحت تتحكم فيه شهوته إلى الدرجة التي تدفعه إلى مواقعة زوجته في وضح النهار وبعلم أصحابه ثم يخرج للناس مبررا فعله هذا بأن المرأة التي وقع عليها بصره أثارته..

ويعلق النووي على هذا الحديث بقوله: قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها - أي النساء - لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن فهي - أي المرأة - شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له (٢٧)..

ويروي مسلم حديثا آخر يقول: إن رجلا كان يتهم بأم ولد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). فقال رسول الله لعلي: اذهب فاضرب عنقه. فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد فيها. فقال له علي: أخرج. فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر. فكف عنه ثم أتى فقال يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر (٢٨)..

هوامش

---

(١) - البخاري كتاب النكاح. وانظر فتح الباري (ج ٩ / ٣١٦).

(٢) - البخاري باب غزوة خيبر. وانظر فتح الباري (ج ٧ / ٤٦٩) وما بعدها. وانظر مسلم.

(٣) - المرجع السابق.

(٤) - المرجع السابق.

(٥) - المرجع السابق.

(٦) - البخاري كتاب مناقب الأنصار. وانظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٢٣) وما بعدها.

(٧) - البخاري ومسلم كتاب الحيض.

(٨) - المرجعان السابقان.

(٩) - المرجعان السابقان.

(١٠) - البخاري. باب فضل عائشة. وانظر فتح الباري (ج ٧ / ١٠٨) وما بعدها.

(١١) - البخاري.

(١٢) - أنظر طبقات ابن سعد.

(١٣) - البداية والنهاية لابن كثير (ج ٧ / ١٤٤).

(١٤) - البخاري. باب فضائل عائشة. وانظر فتح الباري (ج ٧ / ١٠٨).

(١٥) - أنظر صحيح مسلم.

(١٦) - أنظر مسلم باب فضل عائشة. وتقول عائشة: كنت ألعب بالبنات - العرائس - في بيته - أي بيت الرسول - وهي اللعب. وتروي عائشة: وكانت تأتيني صواحبي فكن ينقعن - يهربن - من رسول

الله – حين يدخل علي – فكان رسول الله يربهن إلي. وفي البخاري ومسلم تروي عائشة أنها أخذت إلى رسول الله ليدخل بها وهي على أرجوحة تلعب مع صواحبها. مسلم كتاب النكاح.

(١٧) – أنظر كتابنا فقه الهزيمة فصل شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

(١٨) – مسلم شرح النووي (ج ١ / ٦٠٤).

(١٩) – فتح الباري (ج ٩ / ٣١٦).

(٢٠) – المرجع السابق.

(٢١) – المرجع السابق (ج ٧ / ٤٧٠).

(٢٢) – المرجع السابق (ج ٧ / ٢٢٥).

(٢٣) – البداية والنهاية (ج ٧ / ١٤٤).

(٢٤) – أنظر الفصل القادم.

(٢٥) – أنظر كتابنا فقه الهزيمة.

(٢٦) – مسلم كتاب النكاح.

(٢٧) – مسلم (ج ٤ / ١٣٠).

(٢٨) – مسلم كتاب التوبة.

علم الحديث بين المتن والسند

لفت نظري اتفاق علماء الحديث على عدم مساس المتن وأن نقد الحديث إنما ينحصر في دائرة السند فقط. فعلى ضوء هذه القاعدة تم تمرير الكثير من النصوص المنسوبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي تصطدم بالقرآن والعقل وتفوح منها رائحة السياسة وتلقتها الأمة بالقبول وتعبدت بها لمجرد أن سندها صحيح حسب قواعدهم..

ولقد أثار هذا الموقف من قبل المحدثين الشك في نفسي. إذ كيف يخضع السند وحده للنقد دون المتن..؟.

وبتحري الأمر تبين لي أنه حتى نقد السند إنما يخضع لقواعد خاصة وضعوها في الجرح والتعديل تفوح منها رائحة السياسة..

يروي مسلم عن ابن سيرين قوله: لم يكونوا - أي أهل الحديث - يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم (١)..

ويروى عن عبد الله بن المبارك قوله: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء (٢).

ويروون: لم نر الصالحين في شئ أكذب منهم في الحديث (٣)..

ويروي مسلم عن سفيان قوله: كان الناس يحملون - يروون - عن جابر بن

يزيد الجحفي قبل أن يظهر ما أظهر فلما أظهر ما أظهر اتهمه الناس في حديثه وتركه بعض الناس. فقيل له: وما أظهر. قال: الإيمان بالرجعة (٤)..

ويروي عن رقبة قوله: أن أبا جعفر الهاشمي المدني كان يضع أحاديث كلام حق وليست من أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يرويها عن النبي (٥)..

ويروي عن يونس بن عبيد قوله: كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث (٦)..

ويقول ابن حجر العسقلاني:... فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهورا بصدق اللهجة والتسمك بأمور الديانة. بخلاف من يوصف بالرفض فإن غلبهم كاذب ولا يتورع في الأخبار (٧)..

وقال ابن المديني سئل يحيى بن سعيد القطان عن جعفر الصادق فقال: في نفسي منه شئ ومجالد أحب إلي منه (٨)..

والإمام جعفر الصادق أتهم بالكذب والوضع على الرسول ولم يسترح لروايته القوم والسبب في ذلك أن الشيعة تلتف من حوله والسلطة غير راضية عنه حتى البخاري لم يرو عنه (١٠)..

وعمرو بن عبيد المذكور رفض حديثه لأنه ينتمي لتيار المعتزلة (١١)..

وابن حجر يزكي النواصب - أي الذين يعادون آل البيت - ويتهم الشيعة بالكذب وعدم الورع في نقل الأخبار (١٢)..

وابن القطان لم تسترح نفسه للإمام جعفر الصادق فلم يأخذ بأحاديثه وقدم عليه مجالد المتهم عند أهل الحديث (١٣)..

وسئل أبو بكر بن عياش: مالك لم تسمع من جعفر وقد أدركته؟.

قال: سألته عما يحدث به من الأحاديث أشئ سمعته..؟.

قال الإمام جعفر: لا. ولكنها رواية رويناها عن آبائنا (١٤)..

إن جعفر الملقب بالصادق ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) غير أمين على الرواية عند القوم وهو بينه وبين الرسول (صلى الله عليه

وآله وسلم) أربعة أئمة أعلام مشهود لهم بالعلم والورع والخلق والتقوى فهم أبناء الرسول. بينما مجالد ومن هو على شاكلته والذي بينه وبين الرسول عشرات الأنفس المجهولة تعتمد روايته ويوثق عند القوم. هل يقبل الدين والعقل مثل هذا الكلام..

ولنترك هذا الموقف ولننتقل إلى موقف آخر. فإن القوم يشترطون في الراوي حتى يبلغ مرتبة الثقة شرطين هما: العدالة ثم الضبط..

العدالة يقصد بها الإسلام والبلوغ والعقل والسلامة من الفسق وخوارم المروءة (١٥)..

والضبط يقصد به سماعه للحديث على الوجه الذي حدده المحدثون في كيفية السماع. مع فهمه وحفظه والثبات عليه حتى يرويه (١٦)..

ورغم اشتراط هذين الشرطين من قبل القوم إلا أنهم في ميدان التطبيق العملي تم تجاوزهما إذ أن التقيد بهما سوف يضعهم في حرج كبير وقد يؤدي إلى نبذ أغلب الرواة لديهم وهذا يعني زوال السنة؟.

وسوف نعرض هنا نماذج من هؤلاء الرواة ليتبين لنا كيف أن القوم تناقضوا مع أنفسهم واشترطوا شروطا لم يطبقوها..

* إسماعيل بن عبد الله أبي أويس بن عبد الله الأصبحي أبو عبد الله المدني..

قال ابن معين فيه: لا يساوي فلسين. هو وأبوه يسرقان الحديث. وهو مخلط يكذب ليس بشئ.. وقد روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة..

* بسر بن أرطأة. قال فيه ابن معين: كان رجل سوء.

وبسر هذا من أنصار معاوية وهو الذي قاد حملات الإبادة والتصفية الجسدية لخصوم معاوية في الحجاز واليمن. وقد دعا عليه الإمام علي (ع). روى له أبو داود والترمذي والنسائي..

* ثور بن يزيد بن زياد الكلاعي الحمصي..

قال أحمد: نهى مالك عن مجالسته. وكان الأوزاعي سئ القول فيه.

وكـان يكـره الإمـام عليـا (ع) لقتلـه جـده فـي صـفين.. روى لـه البخـاري وغيره..

* الجراح بن مليح والد وكيع مقرئ الشافعي..

وقـال ابـن حبـان: يقلـب الأسـانيد ويرفـع المراسـيل. وقـال ابـن معـين: كـان وضاعا.. روى له مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة..

* حبيب ابن أبي حبيب يزيد الجرمي الأنماطي..

نهى ابن معين عن كتابة حديثه.. روى له مسلم وابن ماجة والنسائي..

* حريز بن عثمان الرجي الحمصي..

مـتهم بـسب الإمـام علـى (ع) والكـذب علـى الرسـول (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم). روى له البخاري وغيره..

خالد بن سلمة العاص المخزومـي المعـروف بالضـئضاء، قـال عنـه جـوير: كـان مرجئا ويعادي عليا وكان ينشد ابن مروان شعرا..

* زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي العامري..

قال ابن المديني: هو ضعيف.. ونقل عن ابن معين قوله: ليس بشئ..

روى له البخاري ومسلم وغيرهما..

سالم بن عجلان الأفطس الأموي..

قال ابن حبان: يقلب الأخبار وأتهم بأمر سوء وقتل بسببه.. وقال العدي: كان يخاصم في الإرجاء (المرجئة) ويدعو لها.. وقال النووي: مرجئ معاند.. روى له البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة..

* طارق بن عمرو المكي القاضي مولى عثمان بن عفان..

ولي المدينة من قبل عبد الملك بن مروان وكان من ولاة الجور.. روى له مسلم وأبو داود..

* عمرو بن سعيد بن العاص الأموي المعروف بالأشدق..

كان واليا على المدينة من قبل معاوية ويزيد.. خرج على عبد الملك بن مروان

فقتله.. من ولاة الجور.. روى له مسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي..

* عمران بن حطان الدوسي..

قال الدارقطني: متروك الحديث لسوء اعتقاده وخبث مذهبه.. شاعر الخوارج وله قصيدة يمدح فيها ابن ملجم قاتل الإمام (ع).. روى له البخاري وأبو داود والنسائي..

* مجالد بن سعيد الهمداني الكوفي..

قال فيه أحمد: ليس بشئ.. وقال الدارقطني: لا يعتد به.. ونقل البخاري أن ابن مهدي لم يكن يروي عنه.. روى له مسلم وغيره.. ومجالد هو الذي قدمه ابن القطان على الإمام الصادق.. تأمل..

ولا يتسع المجال هنا لذكر المزيد من الرجال المجروحين الذين لا تنطبق عليهم صفات الراوي الثقة والذين روت لهم كتب السنن. إلا أننا ذكرنا هذه النماذج على سبيل المثال من أجل البرهنة على وقوع الانحراف لا أكثر (١٧)..

وما يمكن قوله حول هذا الأمر أن القوم عدلوا مئات الرواة ممن لا عدالة لهم وإذا سرنا على قاعدتهم بنقد السند وحده فسوف نهدم كثيرا من الروايات التي ذكروها في كتب الصحاح وهم إن كانوا يقصدون بحظر نقد المتن الحيلولة بين المسلمين وبين الشك في الروايات فقد جعلوا المسلمين يشكون فيها عن طريق السند..

ويكفي القول أنهم يعتمدون المجرمين من الولاة وقادة الجيوش الذين ذبحوا المسلمين وهتكوا الأعراض وأهلكوا الحرث والنسل من أجل العروض كرواة لأحاديث الرسول وعلى رأسهم بسر بن أرطأة وعمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الذي قتل الحسين وأهل بيته في كربلاء والذي روى البخاري له..

إن أهل الحديث يعتبرون جرائم بسر وعمر تقع تحت باب التأويل أي أنهما ارتكبا ما ارتكباه من باب التأويل الذي لا يؤدي إلى تجريحهما. فليس عيبا عندهم أن يكون الراوي من الحكام الجائرين أو من الخوارج المارقين قتلة المسلمين ما دام قد اشتهروا بالأمانة والصدق فهذا يكفي.

وكيف يكون أمينا صدوقا من وضع السيف على رقاب الناس وبطش بالمسلمين وارتكب الفواحش والمنكرات من الحكام..؟.

كيف يكون أمينا صدوقا من صاحب هؤلاء الحكام واتخذهم أخلاء مثل الزهري..؟.

وكيف يكون الخوارج أمناء صدوقين وقد ذمهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصفهم بكلاب النار وطالب بقتلهم في أحاديث صحيحة عند القوم..؟.

إن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن في كلمة واحدة هي: السياسة. فلو تخلى القوم عن هذا النهج ما كانت هناك سنة ولا كان هناك حكام على شاكلة بني أمية وبني العباس. ولفقد القوم أهم الأسلحة التي تهدد الخصوم من التيارات الأخرى. وهي الأحاديث المنسوبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي تشكل من باب آخر صمام أمن للحكام..

لو أباح القوم نقد المتن ونبذ المشبوهين من الرواة ما وصل إلى الأمة الحديث القائل: تسمع وتطبع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع (١٨)..

والحديث القائل: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني (١٩)..

والحديث القائل: إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقي به. فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر وأن يأمر بغيره كان عليه منه (٢٠)..

والحديث القائل:... وستكون خلفاء فتكثر. قالوا فما تأمرنا. قال: فوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم (٢١)..

والحديث القائل: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم والحديث القائل: من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات مات ميتة جاهلية (٢٤)..

والحديث القائل: من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه (٢٥)..

والحديث القائل: إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما (٢٦)..

والحديث القائل: ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم. ولكن من رضي وتابع قالوا أفلا نقاتلهم. قال: لا ما صلوا (٢٧)..

وفي رواية أخرى: وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف. فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة (٢٨)..

إن مثل هذه الأحاديث التي باركها القوم هي التي صنعت بني أمية وبني العباس وغيرهم من حكام السوء وسلطتهم على رقاب المسلمين وأضفت عليهم المشروعية على الرغم من ممارساتهم ومواقفهم الجاهلية التي تصطدم بقواعد الإسلام وقواعد الأخلاق والعدل (٢٩)..

مثل هذه الأحاديث هي التي قتلت روح التجديد والتغيير في أمة المسلمين وحولتهم إلى قطيع من الأغنام يسوقهم الحاكم كيفما شاء. هذه الأحاديث ما تزال سيوفا على رقاب المسلمين حتى اليوم ولا يجرؤ أحد على المساس بها أو التشكيك فيها..

لقد دعم فقهاء الهزيمة أطروحتهم بمثل هذه الأحاديث المخيفة لأي اتجاه أو تيار يفكر في الخروج على الخط السائد ونبذ أطروحته..

ثم دعموا هذا الموقف بحديث منسوب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: من بدل دينه فاقتلوه (٣٠)..

وهكذا شاع الارهاب الفكري في الأمة وقنن هذا الارهاب واكتسب مشروعية بهذه الأحاديث وتم التنكيل بأصحاب الرأي وتصفيتهم جسديا بتهمة الزندقة والردة (٣١)..

وتبدو هناك ظاهرة خطيرة في مجال الحديث والرواية وهي صلة الحكام بعملية تدوين السنة ودعم رموزها البارزة..

ففي عهد الخليفة الأول والثاني منعت الرواية وأحرقت صحفها وفرض عمر

حظـرا علـى أبـي هريـرة لإكثـاره الروايـة عـن الرسـول (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) [٣٢]..

إلا أنه في عهد بني أمية ظهرت حاجة الحكام وعلى رأسهم معاوية للأحاديث فقاموا باستقطاب عدد من الذين صحبوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي مقدمتهم أبو هريرة. ليقوموا بالرواية..

وكانت الأحاديث المنتشرة والمدعومة من قبل حكام بني أمية حتى عصر عمر بن عبد العزيز تسير في خط مناهض لخط الإمام علي (ع) أي تركز على القضايا التالية:

- رفع مكانة الخلفاء الثلاثة وإضفاء الفضائل عليهم..
- إضفاء المشروعية على الخط الأموي..
- تشويه الإمام علي (ع)..
- التشكيك في الصحابة الذين والوا الإمام وتشيعوا له..
- نقل الرواية من الرموز الموالية لهم مثل عائشة وابن العاص وابن عمر وأبي هريرة، ولما جاء عمر بن عبد العزيز أمر بجمع الأحاديث وتدوينها. وهناك من يقول أن أول تدوين للسنة كان في العصر العباسي [٣٣]..

وما يعنينا هنا ليس الخلاف على فترة التدوين ولكن ما يعنينا هو أن الذين قاموا بعملية التدوين ارتكزوا على دعامتين: الحكام والروايات المنتشرة بين القوم والتي هي من نتاج العصر الأموي. فقاموا بدعم من الحكام بجمع هذه الروايات دون حساب للواقع الذي نشأت فيه ودون أن يتجهوا لأطراف أخرى مثل أئمة آل البيت المعاصرين لهم مثل علي بن الحسين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق، فهؤلاء، قد تم التشكيك فيهم لأنهم يمثلون خط الإمام علي ومن جهة أخرى لديهم الأحاديث الخاصة بهم التي نقلوها عن الإمام علي والتي من الممكن أن تصطدم بالأحاديث التي ظهرت في العصر الأموي والتي هي بحوزة القوم..

وإذا نظرنا إلى الرموز في مسيرة رواية الأحاديث وتدوينها فسوف تتبين لنا صلتهم الوثيقة بحكام زمانهم وولاؤهم التام لهم..

لقد قامت عملية الرواية معتمدة على ثلاثة نفر ممن عاصروا رسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم) وهم: عائشة وهي معروفة بخصومتها للإمام علي وقد روت كما كبيرا من الأحاديث على لسان الرسول منها أحاديث تتعلق بالحكم والسياسة (٣٤)..

ابن عمر وهو معروف بانحرافه عن الإمام ومبايعته معاوية ويزيد وسائر حكام بني أمية (٣٥)..

أبو هريرة وقد كان من حلفاء معاوية (٣٦)..

هذه الرموز الثلاثة روت أكبر كم من الأحاديث على الرغم من قصر الفترة التي عايشوا فيها الدعوة والرسول ولم يكونوا بالإضافة إلى ذلك بالقريبين من الرسول (٣٧)..

فإذا جئنا إلى الذين دونوا السنة وجمعوها وعدلوا وجرحوا رواة الأحاديث فنجد على رأس هؤلاء الزهري والمديني ويحيى بن معين وسفيان الثوري..

أما الزهري فكان نديم عبد الملك بن مروان ووثيق الصلة بخلفاء بني أمية من بعده وقد كان هؤلاء يمولون الزهري ويغدقون عليه العطاء لينشر الأحاديث بين الناس فكان يقيم الموائد ويغدق بالأموال على الناس ليجذبهم لسماع حديثه وإشاعته (٣٨)..

أما المديني وابن معين فهما صاحبا القول الفصل في الرواة يجرحان ويعدلان بدون حساب ودون أن يراجعهما أحد. فإذا قالا على فلان هو ثقة فهو ثقة. وإذا قالا عليه كذاب فهو كذاب. ومن يراجع كتب الرجال يكتشف هذا الأمر بوضوح (٣٩)..

إلا أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: من الذي وثق ابن معين والمديني ومنحهما سلطة الحكم على الرجال..؟.

يقول المروزي عن المديني: سمعت أحمد كذبه. وقيل لإبراهيم الحربي: أكان ابن المديني يتهم بالكذب؟ فقال: لا. إنما حدث بحديث فزاد فيه كلمة ليرضي بها ابن أبي داود (٤٠)..

وفي سفيان الثوري الذي يصفه القوم بأمير المؤمنين في الحديث. يقول الذهبي: متفق عليه مع أنه كان يدلس عن الضعفاء. ولا عبرة بقول من قال

يدلس ويكتب عن الكذابين.

وقال فيه أبو داود: لو كان عنده شئ لصاح به..

وقال فيه ابن معين: مرسلات سفيان شبه الريح (٤١)..

ويقول الثوري: لو أردنا أن نحدثكم بالحديث كما سمعنا ما حدثناكم بحديث واحد (٤٢)..

فإذا كان الثوري الذي رفعوه فوق مالك يقولون فيه مثل هذا الكلام فكيف الحال بسائر الرواة ممن هم في درجة أقل..؟.

وإذا كان القوم قد وقعوا في ابن المديني كبير المعدلين وابن معين قد وقع في الجميع. فأين الحقيقة إذن..؟.

ألا تكفي مثل هذه الوقائع للشك في هؤلاء الناس وفقدان الثقة فيهم..؟.

هوامش

---

(١) - مسلم. المقدمة.

(٢) - المرجع السابق.

(٣) - المرجع السابق.

(٤) - المرجع السابق.

(٥) - المرجع السابق.

(٦) - المرجع السابق.

(٧) - أنظر تهذيب التهذيب.

(٨) - المرجع السابق.

(٩) - ينسب أهل السنة على الدوام للشيعة أمورا كثيرة تتعلق بالرجعة هم منها براء وذلك بهدف تشويه فكرتها ودفع المسلمين إلى بغضهم والاستخفاف بعقائدهم منها ما يرويه مسلم في مقدمته عن سفيان قوله أن الرافضة - أي الشيعة - تقول أن عليا في السحاب.. أي سوف يرجع وأنه ينادي من فوق السحاب ويوجه الشيعة. إلا أن ما يمكن قوله حول فكر الرجعة أنها ليست عقيدة عند الشيعة وإنما هي مجرد رؤية يتبناها البعض.

(١٠) - كيف للبخاري أن يترك رواية جعفر الصادق وهو بينه وبين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

أربعة أنفس فهو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. والخمسة لا تشوبهم شائبة وهم أعلام زمانهم. بينما يتجه شرقا وغربا ويجوب الأمصار بحثا عن الرواية من أناس يتطلب التحري عنهم مشقة كبيرة ثم إن بينهم وبين الرسول بعد المشرقين حتى أنه وجد أحدهم يكذب على دابته فترك الرواية عنه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما دام البخاري بهذه الدقة وهذا الورع لم لم يرو عن أئمة آل البيت (ع).

(١١) – أنظر تهذيب التهذيب لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي.

(١٢) – أنظر تهذيب التهذيب.

(١٣) – المرجع السابق وميزان الاعتدال. وقد ضعفه البخاري ويحي بن معين وأحمد بن حنبل.

(١٤) – تهذيب التهذيب.

(١٥) – أنظر كتب الرجال وعلم الحديث عن السنة. ويلاحظ أن كثيرا من رواتهم تنطبق عليهم حالة الفسق وخوارم المروءة.

(١٦) – أنظر المراجع السابقة.

(١٧) – أنظر هدى الساري مقدمة فتح الباري شرح البخاري وفيها الكثير من هذه النماذج في البخاري نقده القوم بسببها ودافع ابن حجر بمنطق التبرير.

(١٨) – مسلم كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء. وانظر البخاري كتاب الأحكام.

(١٩ – ٢٨) – المرجعان السابقان.

(٢٩) – أنظر لنا عقائد السنة وعقائد الشيعة. والسيف والسياسة في الإسلام، وانظر مناقشته في كتابنا شهداء الرأي في التاريخ الإسلامي.

(٣٠) – الحديث رواه البخاري.

(٣١) – أنظر كتابنا السابق ذكره شهداء الرأي.

(٣٢) – أنظر باب القرآن من هذا الكتاب.

(٣٣) – أنظر كتاب تاريخ الحديث وكتب التراجم.

(٣٤) – أنظر باب تضخيم الرجال من هذا الكتاب.

(٣٥) – أنظر الباب السابق ذكره.

(٣٦) – الباب السابق ذكره.

(٣٧) – الباب السابق ذكره.

(٣٨) – أنظر ترجمة ابن شهاب الزهري في وفيات الأعيان لابن خلكان وكتب التراجم.

(٣٩) – أنظر تهذيب التهذيب وميزان الاعتدال.

(٤٠) – أنظر المرجعين السابقين.

(٤١) – أنظر تهذيب التهذيب.

(٤٢) – أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي.

الصحابة

إن فهم قضية الصحبة يعد مقدمة ضرورية لفهم الإسلام وكشف حقيقة الأطروحة الإسلامية المعاصرة والتي قامت في الأساس على فقه الرجال لا فقه النصوص. فقد حكم القوم بعدالة جميع الصحابة وحشدوا الكثير من النصوص القرآنية والنبوية المتعلقة بهم وطبقوها عليهم دون تمييز معتبرين المساس بالصحابة مساسا بالدين وبغضهم أو نقدهم زندقة وردة. وحتى يضبطوا المسألة ويحولوا بين المسلمين وبين معرفة الحقيقة أدخلوا مسألة الصحابة في صلب العقيدة (١) يقول الطحاوي في عقيدته ونحب أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان. وبغضهم كفر ونفاق وطغيان (٢)..

ويقول صدر الدين الحنفي معلقا على هذا الكلام: يشير الشيخ - أي الطحاوي - إلى الرد على الروافض والنواصب وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنى.. فمن أضل ممن يكون في قلبه حقد على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين (٣)..

ويقول أحمد: لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب أو نقص فمن فعل ذلك أدب فإن تاب وإلا جلد في الحبس حتى يموت أو يرجع (٤)..

وعلى هذا الكلام إجماع القوم لم يخالف منهم أحد. إلا أن هناك عدة ملاحظات تفرض نفسها على هذا الطرح:

* أن موقفهم هذا موقف عائم لا تحكمه ضوابط..

* أن هذا الموقف يحمل تهديدا ووعيدا لمن يخالفه..

* أن الصحابة وقعوا في بعضهم وسب بعضهم بعضا..

* أن هذا الموقف يتناقض مع صريح نصوص القرآن..

وينبغي لنا هنا أن نعرض مفهوم الصحبة في فقه القوم حتى يكون الأمر أكثر وضوحا..

يقول ابن حجر: أصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) مؤمنا به ومات على الإسلام. فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ومن روى عنه أو لم يرو ومن غزا معه أو لم يغز ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ومن لم يره لعارض كالعمى (٥)..

ويقول ابن حجر: أن نفرا من الجن آمنوا وسمعوا القرآن من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم صحابة (٦)..

وقال ابن حنبل والبخاري والواقدي وغيرهم نفس كلام ابن حجر فهذا التعريف للصحابي محل اتفاق القوم والمخالف له شاذ ومبتدع (٧)..

ويقول ابن حجر: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة ونقل قول بعضهم: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم. فمن ذلك قوله تعالى ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ وقوله ﴿**السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه**﴾ وقوله ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾ (٨)..

ومن الواضح أن هذا التعريف لمفهوم الصحبة من شأنه أن يدخل كل من هب ودب من الناس في زمرة الصحابة وبالتالي ينال هذه المرتبة الشريفة ويرتفع مقامه في نظر الأمة ويجوز على ثقتها فلا تجد حرجا من التلقي منه..

وهذا هو الهدف من وراء تقويم مفهوم الصحبة بهذا الشكل الساذج. وهو الهدف أيضا من وراء الزجر والوعيد الذي رفع شعاره القوم لإرهاب كل من يحاول المساس بهذه القاعدة أو الخروج عليها إن من الاستحالة أن يكون مجتمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مجتمعا ملائكيا. أو مجتمع أي رسول.

فالرسل ليس دورهم أن يحولوا الناس إلى ملائكة. أنما دورهم ينحصر في التبليغ والتبيين والناس أحرار في قبول دعوتهم أو رفضها. حتى الملتزمون بهذه الدعوة هم درجات من الإيمان بها والالتزام بأحكامها لقد كان الهدف من فكرة العدالة هدفا سياسيا. إذ لو كانت العدالة منحصرة في فئة محدودة ممن عاصروا الرسول. لما أمكن لأحد أن يروي عن الرسول إلا هذه الفئة. ولما أمكن اختراع هذا الكم الهائل من الروايات المنسوبة للرسول والتي اعتمد عليها الحكام في تدعيم سلطانهم. واعتمد عليها الفقهاء في دعم أطروحتهم وإلزام الأمة بالسير على نهجهم..

كان الهدف من فكرة العدالة هو إدخال هذا الكم من الرجال المشبوهين في دائرة الثقة والإيمان حتى يمكن للأمة أن تتلقى منهم دون حرج..

الهدف هو مساواة معاوية بالإمام علي. وبالتالي تضيع الحقيقة وتسير الأمة من وراء معاوية. وهو ما حدث بالفعل (٩)..

وقد تحقق لهم أن نشأت أجيال التابعين وتابعي التابعين ومن بعدهم على الإعتقاد بعدالة جميع الصحابة ومنهم معاوية الذي استسلمت الأمة لخطه وباركه فقهاء الخديعة وأهمل تماما خط الإمام علي ودخل دائرة النسيان..

وحتى بعد أن سب معاوية الإمام عليا على المنابر وهو ما يخالف اعتقاد القوم الذين يحكمون على ساب الصحابي تارة بالكفر وتارة بالجلد والحبس وتارة بالقتل. لم يدفعهم هذا إلى نبذه ومقاطعته وهذا الأمر إن دل على شئ فإنما يدل على التواطؤ والانحياز لبني أمية..

لم يكن الهدف من فكرة العدالة هو الحفاظ على الدين وإنما كان الهدف هو ضرب أصحاب العدالة الحقيقيين والتغطية عليهم..

ونظرا لكون الأمة سارت في خط بني أمية وبني العباس فهي قد تلقت دينها من

أولئك الذين أدخلوا في دائرة العدالة وليس من أصحاب العدالة الحقيقيين..

ولولا فكرة العدالة وتعريف الصحبة الذي ساد الأمة ما كان هناك وجود لبني أمية ولا لبني العباس وما كان اختفى منهج آل البيت منهج الإمام علي وعزل عن الواقع. فالأمر في حقيقته ليس إلا مؤامرة على الدين صنعها الحكام واعتمدوا فيها على صحابة زائفين ثم باركها الفقهاء من بعد وغابت الحقيقة عن الأجيال المسلمة اللاحقة..

إن المتتبع لسيرة الصحابة سوف يتبين له أن هناك انحرافات كثيرة وقعت على أيديهم في حياة الرسول وبعد مماته. هذه الانحرافات تخرج الكثير منهم من دائرة العدالة ولا تبقي إلا القليل وما يدفع للشك في مسألة الصحبة والعدالة هو التركيز الواضح على أشخاص بعينهم من الذين عاصروا الرسول وحصر أكثر الروايات وأهمها وأخطرها على عقل الأمة ومستقبلها في دائرتهم فالروايات المتعلقة بطاعة الحكام ووجوب الالتزام بنهجهم رواها أبو هريرة وابن عمرو ابن العاص وغيرهم ممن تحالفوا مع معاوية..

والروايات التي تتعلق بحياة الرسول الجنسية وعلاقته بالنساء روت أغلبها عائشة وأبو هريرة وحفصة وغيرهم من أنصار الخط الأموي..

والروايات التي ترفع من قدر بني أمية رواها أناس من خطهم..

حتى أن معاوية روى عن نفسه فقبلوا روايته..

وروى البخاري عن الطائفة المنصورة من طوائف المسلمين حديثا يقول:

خطب معاوية قائلا: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. وإنما أنا قاسم ويعطي الله. ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله (١٠)..

أما المتأمل في أحاديث حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري ومواقفهم فسوف يتبين له أن هؤلاء يطرحون طرحا آخر ويبثون علما آخر وما ذلك إلا لكون هؤلاء كانوا من خلص الصحابة وتلاميذ الإمام علي لأجل ذلك سحبت الأضواء من فوقهم وسلطت على آخرين ممن لا يوزنون بشئ..

ولقد عمد القوم إلى تشويه روايات هؤلاء والطعن فيها ليصرفوا الأمة عنها حتى أنهم طعنوا في أشخاصهم وفي شخص الإمام علي ذاته (١١)..

وأن الباحث في كتب مثل البخاري يكتشف مثل هذا الأمر. يكتشف أن هناك تحيزا لأفراد بعينهم أكثر البخاري عنهم الرواية بينما أهمل آخرين هم أعلى مكانة وأكثر قربا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

والبخاري إنما بنى موقفه هذا - ويشاركه في ذلك جميع كتاب السنن تقريبا - على أساس ما أسس سابقوه من قواعد للنقل والرواية. فهو لم يعمل عقله في هذه القواعد التي تفوح منها رائحة السياسة وإنما اعتبرها من المسلمات لإجماع الأمة عليها فتناولها وبنى عليها..

وأول ما يلفت النظر في كتاب البخاري أنه لم يرو لجعفر الصادق شيئا ولم يرو لفاطمة الزهراء ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)) سوى حديث واحد.

بينما روى لعائشة (٢٤٢) حديثا. ولمعاوية ثمانية أحاديث..

وروى لأبي هريرة (٤٤٦) حديثا..

وروى لابن عمر (٢٧٠) حديثا..

وروى للإمام علي (٢٩) حديثا..

أما أنصار الإمام علي ممن رفضوا السير في خط بني أمية فقد روى لهم أحاديث تعد على الأصابع. وعلى رأس هؤلاء عمار بن ياسر الذي روى له أربعة أحاديث. وبلال بن أبي رباح الذي روى له ثلاثة أحاديث وسلمان الفارسي الذي روى له أربعة أحاديث والمقداد الذي روى له حديثا واحدا. أما أبو ذر فقد روى له أربعة عشر حديثا وروى لعبد الله بن جعفر حديثين (١٢).

وإذا ما نظرنا في مسند أحمد فسوف نجد أنه أسند إلى الإمام علي (٨١٨) حديثا معظمها صحيحة (١٣)..

وإذا ما تبين لنا أن الأحاديث التي رويت على لسان الإمام علي وفاطمة وسلمان وعمار وبلال وغيرهم من شيعة الإمام - لا تخرج عن دائرة الأخلاق والوعظ وبعضها ضد الإمام وفي صالح خصومه تبين لنا لماذا قدم البخاري على جميع كتب الأحاديث وسلطت الأضواء عليه من دونها؟..

إن تتبع النصوص سوف يكشف لنا أن العدالة إنما تنحصر في دائرة آل البيت

وحدهم. فهم الذين وجه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الأمة لتتلقى الدين منهم بعد وفاته (١٤)..

وعندما تمنح العدالة لسواهم فإن هذا يعني أن الأجيال المسلمة سوف تلتبس عليها حقيقة الدين وسط هذا الكم من الصحابة المختلفين الذين يتحدثون بلسان الرسول والذين هم عدول في نظرها وبالتالي يسهل على الحكام خصوم آل البيت وفقهاؤهم أن يستقطبوهم. وهو ما حدث على مر التاريخ الإسلامي..

لقد نشأت أجيال لا تعرف من هم آل البيت. ولا تعرف سوى الصحابة وأنهم عدول ومصدر تلقي الدين. وما كان ذلك إلا نتيجة لاختراع فكرة العدالة..

ومن هنا تبرز لنا أهمية هذه الفكرة وخطورتها على الدين إذ انبنى عليها دينا آخر يقوم على أساس روايات رجال مشبوهين. وأن التحرر من هذه الفكرة مقدمة ضرورية لمعرفة الدين الحق الذي يقوم على النصوص..

وعلى الرغم من محاولات القوم المستميتة للدفاع عن الصحابة وإظهارهم بمظهر العدول فقد أفلتت بعض الروايات في كتب القوم التي تناقص هذا المفهوم وتكشف أن هناك انحرافا بل وردة وقعت من قبلهم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

يروي البخاري: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: يرد على الحوض رجال من أصحابي فيحالون عنه. فأقول يا رب أصحابي؟ فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى (١٥)..

وفي رواية: فأقول سحقا. سحقا لمن غير بعدي (١٦).

ويقول القسطلاني: أي غير دينه. لأنه لا يقول في العصاة بغير الكفر سحقا سحقا. بل يشفع لهم ويهتم بأمرهم كما لا يخفى (١٧)..

ويروي البخاري أنه قيل للبراء بن عازب: طوبى لك صحبت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا ابن أخي أنت لا تدري ما أحدثنا بعده (١٨)..

هوامش

(١) – أنظر كتاب العقيدة الواسطية لابن تيمية وهو من الكتب المنتشرة في مصر وكانت توزع مجانا. وانظر لنا باب الرجال من كتاب عقائد السنة وعقائد الشيعة.

(٢) – شرح العقيدة الطحاوية ط القاهرة. وهذا الكتاب من أشهر كتب العقائد المنتشرة في الوسط الإسلامي بمصر.

(٣) – المرجع السابق.

(٤) – أنظر كتاب السنة لأحمد بن حنبل وعقيدة أهل السنة له أيضا. ط القاهرة.

(٥) – الإصابة في تمييز الصحابة المجلد الأول.

(٦) – المرجع السابق.

(٧) – المرجع السابق.

(٨) – المرجع السابق.

(٩) – أنظر باب تضخيم الرجال من هذا الكتاب. وانظر كتابنا السيف والسياسة.

(١٠) – أنظر البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم. ومن الواضح من هذه الرواية أن معاوية حدد الخط الفقهي والسياسي للأمة. كما حدد أن الطائفة الظاهرة المنصورة هي أهل العلم كما ذكر البخاري وكان إجماعهم هذا في العصر العباسي. فهل كانوا يقصدون أهل العلم في العصر الأموي أم أهل العلم في العصر العباسي؟ ومعنى حصرهم الطائفة المنصورة في أهل العلم كما حصروا أيضا الفرقة الناجية أنهم وجدوا مخرجا من هذا الحرج باختراع روايات تدخل معاوية في زمرة الفقهاء.

(١١) – أنظر باب تضخيم الرجال.

(١٢) – أنظر هدي الساري مقدمة فتح الباري.

(١٣) – أنظر مسند أحمد. والقوم يشككون في روايات المسند.

(١٤) – أنظر فصل تضخيم الرجال.

(١٥) – البخاري كتاب الفتن وباب الحوض.

(١٦) – المرجع السابق.

(١٧) – أنظر هامش صحيح مسلم طبعة استنبول.

(١٨) – كتاب الفتن.



الاجماع

يجد الباحث في مسألة الاجماع أمامه الحقائق التالية:

* أن مسألة الاجماع محل خلاف بين الفقهاء..

* أن الاجماع لم يتحقق في فترة من فترات التاريخ الإسلامي بل هناك استحالة لوقوعه..

* أن هناك صورا من الاجماع تثير الشك..

* أن الاجماع يبرز بشكل صارخ في المسائل المتعلقة بالسياسة وعقائد القوم

إن معنى وقوع الاجماع بالصورة التي يحاول القوم إبرازها. معناه عدم وجود أية أطراف أو اتجاهات مخالفة لا تجاههم. والواقع لا يشهد بذلك..

فهناك من الصحابة والتابعين من التزم بنهج الإمام وشذ عن الخط السائد خط القوم وهناك الخوارج..

وهناك المعتزلة..

وهناك سائر الفرق الأخرى..

وكل فرقة من هذه الفرق كانت لها شعبيتها وسط المسلمين. وهي تتبنى أطروحة مخالفة لخط القوم.. فأي إجماع ذاك الذي يتحدثون عنه؟..

والإجابة هي إجماع أهل السنة أو الخط السائد من الحكام والفقهاء على عدة قضايا ومفاهيم تحقق الاستمرارية والسيادة لأطروحة القوم..

فهم أجمعوا على خلافة الأربعة: أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي..

وأجمعوا على عدالة جميع الصحابة بلا استثناء..

وأجمعوا على طاعة الحكام وعدم منابذتهم والخروج عليهم..

وأجمعوا على صحة كتابي: البخاري ومسلم..

وأجمعوا على صحة مصحف عثمان..

هذا هو الاجماع. وهذه هي حقيقته. إنه إجماع خاص بالقوم وليس بالأمة.

وهو إجماع مصيري بالنسبة لهم إذ الخروج عليه معناه هدم عقائدهم ومفاهيمهم.

ولولا هذا الاجماع ما استطاع القوم إقناع المسلمين والأجيال اللاحقة بتبني خطهم وأطروحتهم..

إن المتأمل في الأطروحة الإسلامية المعاصرة سوف يكتشف أنها تقوم على فكرة الاجماع وليس على النصوص مما يعد صورة من صور تغلب الرجال على النصوص..

والهدف من فكرة الاجماع هو نفس الهدف من فكرة العدالة كلاهما يدفع بالأمة إلى الاستسلام للخط السائد وإضفاء المشروعية عليه. وكما أن فكرة العدالة من اختراع السياسة فإن فكرة الاجماع أيضا من اختراع السياسة..

ولقد استخدمت فكرة الاجماع كسلاح يتم إشهاره في وجه المناوئين والرأي الآخر وعلى أساسه تم تصفية الاتجاهات المخالفة وعزلها. وما كان ذلك ليتم لولا دعم الحكام الذين وجدوا في هذه الفكرة عونا ومستندا لهم..

ومسألة الاجماع على خلافة الأربعة لا تخرج عن كونها لعبة سياسية الهدف من ورائها ضرب خط آل البيت. فكون الإمام علي يكون في المؤخرة ويقدم عليه عثمان رأس بني أمية في الحكم ومن قبل عثمان عمر ومن قبل عمر أبو بكر. فإن هذا يعني أن هؤلاء الثلاثة أفضل منه. وما داموا أفضل منه فهذا يعني أنه غير مميز وليس بصاحب مكانة خاصة. وإذا ما وصل المسلم لهذا الإعتقاد فسوف يستخف بآل البيت ولا يعبأ بهم . وهذا هو الهدف من وراء هذا المعتقد..

وما يثير الشك هو تشدد القوم في هذا الإعتقاد ورفعهم شعار الزجر والوعيد

وسوء العاقبة لمن يخالفه فمن ثم هم جعلوه من أصول الإعتقاد في كتبهم حيث تنص عقائدهم على ما يلي: ونثبت الخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أولا لأبي بكر تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة ثم لعمر بن الخطاب. ثم لعثمان بن عفان ثم لعلي بن أبي طالب. وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون (١)..

ويقول ابن تيمية: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي واستقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي. ومسألة تقديم عثمان على علي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبو بكر وعمر ثم عثمان وعلي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله (٢)..

ويقول خليل هراس: وأما مسألة الخلافة فيجب الإعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر ليختاروا الخليفة من بعده. فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عليا كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار (٣)..

وقد تحصن القوم بحديث منسوب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ (٤)..

ولقد بحثت كثيرا في هذه المسألة وتتبعت جذورها حتى توصلت إلى النتائج التالية:

* أن هذا الترتيب الرباعي من اختراع السياسة وليس له ما يدعمه من النصوص...

* أن وضع الإمام علي وراء الثلاثة كان بهدف التستر به حتى لا يشك في هذا الاعتقاد..

* أن الخلفاء الثلاثة ليسوا أصحاب سنة واحدة وإنما كل منهم له سنته المختلفة عن الآخر..

* أن سنة الإمام علي تختلف عن سنة الثلاثة..

* أن القوم اقتدوا بالثلاثة دون الإمام علي..

* أن الخلفاء الثلاثة قد مهدوا لبني أمية..

* أن المحافظة على هذا الترتيب الرباعي هو محافظة على خط بني أمية..

ومن هنا يتبين لنا أن محاولة هدم هذا الإعتقاد سوف يؤدي إلى ضرب شرعية بني أمية حيث أن ضرب أبي بكر سوف يؤدي إلى ضرب عمر. وضرب الثاني سوف يؤدي إلى ضرب الثالث عثمان. وضرب عثمان سوف يؤدي إلى ضرب معاوية. فكل منهم يستمد شرعيته من الآخر. فأبو بكر عين عمر وعمر عين معاوية ومهد لعثمان وعثمان دعم معاوية وقواه أن ضرب هؤلاء الثلاثة سوف يؤدي إلى نصرة آل البيت فهم بديل هؤلاء لأنه سوف يؤدي إلى نقض فكرة العدالة وفكرة الاجماع وبالتالي سقوط أطروحة القوم بأكملها ومن ورائها يتساقط الحكام الذين ارتبطت مصائرهم بها..

وعلى فرض صحة حديث " عليكم بسنتي " وهو ما يتحصن به القوم في تبرير هذا الإعتقاد. فإننا نوجه إلى القوم السؤال التالي: أين سنة علي؟..

إن سنة علي لا وجود لها في أطروحة القوم وهذا وحده كاف للشك في هذه الرواية وسبب آخر من أسباب الشك هو أن هذه الرواية لم يروها البخاري أو مسلم وهما الكتابان محل إجماع القوم. واعتمادهم على هذه الرواية يعد نقضا لإجماعهم هذا. كما نقضوا إجماعهم من قبل بالاعتماد على حديث الفرقة الناجية الذي طبقوه على أنفسهم فهو لم يرو من البخاري أو من مسلم..

إن رفع مكانة هؤلاء الثلاثة إنما كانت على حساب الإمام علي. ومحاولة رفع الإمام على إنما سوف تكون على حساب الثلاثة..

ومن هنا كانت المفاصلة فالذين ساروا على نهج الثلاثة تحالفوا مع بني أمية..

والذين ساروا على نهج الإمام نبذوا بني أمية..

وهناك رواية في البخاري تدعم رؤيتنا هذه في مسألة الخلفاء الثلاثة تقول الرواية: كنا نخير بين الناس في زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فنخير أبا

بكر ثم عمر ثم عثمان (٥) ولا ذكر لعلي فيها..

وفي رواية أخرى: كنا لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نزل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا نفاضل بينهم (٦)..

وهذه الرواية الأخيرة لا تحتاج إلى تعليق..

ويبدو أن القوم تبين لهم أن الاجماع غير كاف لإقناع المسلمين بهذا المعتقد فقرروا استنطاق الإمام علي نفسه والحصول على إقرار شخصي منه بصحة هذا الإعتقاد..

يروي البخاري عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر. وخشيت أن يقول عثمان. قلت ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين (٧)..

وبالطبع لا بد للقوم أن يضيفوا لمعتقداتهم الإعتقاد بصحة روايات البخاري ومسلم من دون بقية كتب السنن والإجماع على ذلك حتى يتم تبرير هذا الموقف. فأي محاولة للمساس بالبخاري ومسلم سوف تهدم معتقدات القوم التي هي من الأساسي مستمدة من هذين الكتابين.. ومن هنا تبرز لنا سر الحرب الضروس التي شنت على من يحاول التشكيك في البخاري أو مسلم في الماضي والتي لا تزال تشن حتى اليوم (٨)..

ومن أبرز عوامل الشك في فكرة الاجماع. إجماع القوم على طاعة الحكام وعدم منابذتهم والخروج عليهم على الرغم من مفاسدهم وانحرافاتهم وكفرهم في أحيان كثيرة. فهذا الاجماع تفوح منه رائحة السياسة بشكل فاضح. وهو يدفع إلى الإعتقاد بأن جميع صور الاجماع الأخرى هي من صنع السياسة أيضا. كذلك الروايات التي تدور حول هذه المسألة..

ولقد حذر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الكذب عليه واختلاق الأحاديث على لسانه وهذا التحذير إن دل على شئ فإنما يدل على أن هذا الأمر سوف يحدث في واقع الأمة..

يروي مسلم عن علي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا

تكذبوا علي فإنه من يكذب علي يلج النار. وفي رواية أخرى يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): إن كذبا علي ليس ككذب على أحد. فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (٩)..

وهذا الحديث الذي بلغ درجة التواتر عند القوم كم يدفع بهم إلى إعادة النظر وتمحيص هذا الكم من الروايات المنسوبة للرسول. فهم يعتقدون سبرا مع مبدأ الاجماع بعدالة جميع الصحابة فمن ثم فإن مسألة الكذب لا تطولهم وأنما تطول من بعدهم من الرواة من التابعين أو تابعي التابعين. هؤلاء فقط الذين من الممكن أن ينطبق عليهم الكذب على الرسول.. ومثل هذا المبدأ قد شكل حاجزا يحول دون نقد الأحاديث حتى عن طريق السند. فما دامت قاعدة الجرح والتعديل لا تطول الصحابي فمن ثم يمكن وقف كثير من الأحاديث عليهم وتبني كل ما ينسبونه للرسول من قول أو فعل أو تقرير دون حرج. ومن جهة أخرى سوف ينعكس هذا المبدأ على الرواة بصورة إيجابية إذ سوف يجعل التعديل مقدما على الجرح. إذ أن الصحابة على الرغم مما فعلوه من فتن وما وقعوا فيه من خلاف وصدامات وانحرافات هم عدول. فكيف يكون حال الرواة إذن على ضوء هذا التصور؟..

لا شك أنه سوف يكون هناك تساهل في تمحيصهم..

ومن هنا يتبين لنا سر عدم تركيز القوم على السلوك السياسي كالتعامل مع الحكام وقتل المسلمين والسلوك الاجتماعي كالبخل والخلق المعوج وسرعة الغضب في حياة الراوي وحصر دائرة التركيز في محيط الصدق والأمانة وحدها. وذلك لكون التركيز على السلوك السياسي والاجتماعي سوف يتناقض مع عدم التركيز على هذا السلوك في حياة الصحابة..

لقد ألقت السياسة بظلالها على علم الحديث عند القوم. وأصبحت الأمة تتلقى أحاديث الرسول من الخوارج والفساق وقتلة أبناء الرسول..

هوامش

(١) – العقيدة الطحاوية.

(٢) – العقيدة الواسطية.

(٣) – شرح العقيدة الواسطية.

(٤) – رواه الحاكم.

(٥) – البخاري كتاب فضائل الصحابة. باب فضل أبي بكر.

(٦) – المرجع السابق.

(٧) – المرجع السابق.

(٨) – أنظر كتاب السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي. وكتاب أبو هريرة راوية الإسلام لعجاج. وكتاب: أبو هريرة وأقلام الحاقدين وغيره. وهي كتب كتبت للرد على من تعرض للأحاديث النبوية.

(٩) – مسلم (ج ١).

تضخيم الرجال

كانت فكرة تضخيم الرجال من أهم الركائز في أطروحة القوم، إذ على أساسها تم توجيه الأمة إلى الخط الآخر المعادي لآل البيت.

ولولا أن أبا بكر كانت له هذه المكانة التي رفعوه بها فوق جميع رجال الأمة..

ولولا المكانة التي اخترعوها لعمر والتي تعلو في أحيان كثيرة فوق مكانة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولولا مكانة عائشة..

ولولا أبو هريرة وابن عمر..

ولولا فكر العدالة والعشرة المبشرون بالجنة..

لولا كل هؤلاء ما تضاءل حجم الإمام علي..

وما تضاءل حجم أبو ذر وسلمان وعمار وحذيفة وغيرهم ممن ناصروا الإمام وشايعوه. وإذا ما أردنا وضع مقارنة بين هؤلاء وبين الإمام فسوف تكون كفة الإمام هي الأرجح لأن الإمام تدعمه النصوص أما الآخرون فتدعمهم أقوال الرجال..

إن النصوص الواردة في الإمام علي تبدد جميع الأقوال والروايات المختلفة في أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم..

من هنا فقد اضطر القوم أن يسدوا هذا النقص في النصوص التي تدعم رجالهم باختراع فكرة الاجماع وفكرة العدالة..

فبواسطة الاجماع تم تمرير الروايات التي ترفع الآخرين على حساب الإمام..

لقد كان الهدف من وراء فكرة التضخيم هو دفع الأمة إلى الاقتداء برموز محددة تخدم الخط السائد وتضفي عليه المشروعية. ومن جهة أخرى دفع الأمة إلى إهمال ونسيان رموز معينة تعادي هذا الخط وتشكل خطرا عليه وهو ما تحقق بالفعل..

والباحث في سيرة هذه الشخصيات المضخمة يكتشف بسهولة أن هذه الشخصيات انحرفت عن الإمام علي وخاصمته ومهدت لبني أمية وناصرتهم.

ـ تجريح الإمام علي ـــــــــــــــــــ

ولم يكتف القوم بعملة التضخيم هذه بل سعوا إلى طعن وتشويه الإمام والتشكيك فيه والتقليل من شأنه عن طريق اختراع الروايات على لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) التي تحط من قدره وتقنع الأمة بالمنزلة التي وضعوه فيها..

يروي البخاري أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال وهو على المنبر: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم عليا بن أبي طالب فلا آذن. ثم لا آذن. ثم لا آذن. إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرا بها ويؤذيني ما آذاها (١)..

وفي رواية أخرى: أن عليا خطب بنت أبي جهل على فاطمة (٢)..

وفي رواية مسلم: وأن فاطمة بضعة مني وإنما أكره أن يفتنوها وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا.. قال - أي الراوي - فترك علي الخطبة (٣) وينقل ابن حجر قولهم: أصح ما تحمل عليه هذه القصة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حرم على علي أن يجمع بين ابنته وبين ابنة أبي جهل لأنه علل بأن ذلك يؤذيه وأذيته حرام بالاتفاق (٤)..

ويروي أحمد: دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على علي وفاطمة فأيقظهما للصلاة. ثم رجع إلى بيته فصلى هويا من الليل فلم يسمع لهما حسا. فرجع فأيقظهما وقال: قوما فصليا. - قال أي علي - فجلست وأنا أعرك

عيني وأقول: إنا والله ما نصلي إلا ما كتب لنا. إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فولى رسول الله وهو يضرب بيده على فخذه ويقول: ما نصلي إلا ما كتب لنا ما نصلي إلا ما كتب لنا. وكان الإنسان أكثر شئ جدلا (٥)..

ويروي الترمذي عن علي قال: كنت رجلا مذاء. فسألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أما المني ففيه الغسل. وأما المذي ففيه الوضوء (٦)..

وفي رواية أخرى يقول علي: كنت رجلا مذاء فكنت أستحي أن أسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لمكان ابنته فأمرت المقداد فسأله. فقال: يغسل ذكره ويتوضأ (٧)..

ويروي أحمد عن علي قوله: كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما حتى رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يمسح ظاهرهما (٨)..

ويروي البخاري أن عليا سئل: هل عندكم شئ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر (٩)..

وقد ذكرنا فيما سبق حديث البخاري على لسان الإمام علي: ما أنا إلا رجل من المسلمين..

ويروي البخاري أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صعد أحدا وأبا بكر وعمر وعثمان فرجف بهم. فقال: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان (١٠)..

ويروي البخاري على لسان عمر قوله عن علي: توفي رسول الله وهو عنه راض (١١)..

ويروي أيضا عن علي قوله بعد أن تولى الخلافة: أقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي (١٢)..

ويروى أن عليا والعباس دخلا على عمر. فلما دخلا. قال عباس: يا أمير المؤمنين إقض بيني وبين هذا - وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله (صلى

الله عليه وآله وسلم) من بني النضير. فاستب علي والعباس (١٣)..

ويروى عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أبو بكر. قلت ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان قلت ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين (١٤)..

ومن خلال هذه الروايات وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره هنا نخرج بالنتائج التالية:..

- أن الإمام عليا تعمد إيذاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يسمع لقوله حين طلب منه النهوض للصلاة..

- أن الإمام عليا عاند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يسمع لقوله حين طلب منه النهوض للصلاة..

- أن الإمام عليا تغلب عليه الشهوة الجنسية..

- أن الإمام عليا كان يجهل أحكام الوضوء..

- أن الإمام عليا لم يرث شيئا من علم الرسول..

- أن الإمام عليا يقر بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان..

- أن الإمام عليا ليس شهيدا..

- أن شرعية علي مستمدة من عمر..

- أن الإمام عليا يلتزم بسنة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه..

- أن الإمام عليا سب العباس عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبب المال..

- أن الإمام عليا يقر بأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان عليه وهذا يعني اعترافا منه بشرعية خلافتهم. وهذا يناقض روايات القوم الأخرى ووقائع التاريخ (١٥)..

وليس هناك من هدف وراء هذه الروايات سوى هدم الصورة المثالية للإمام علي في أذهان المسلمين وهز مكانته الرفيعة في قلوبهم.

العشرة المبشرون بالجنة

وقد روى القوم حديث العشرة المبشرين بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وليس فيهم أحد من أنصار الإمام من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد وضع القوم عليا وسطهم من باب دعم موقفهم لا أكثر وحتى لا تكون المسألة فجة ومفضوحة تماما كما وضعوه في مؤخرة الخلفاء الأربعة.

وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم (١٦).

ومن الواضح أن التسعة المذكورين مع الإمام هم من خصومه وليس بينهم أحد كان من أنصاره يوما..

وهذا الحديث المثير للشك لم يروه البخاري أو مسلم إنما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة فمن ثم فإن حال كحال الحديثين السابقين: حديث الفرقة الناجية وحديث كتاب الله وسنتي وسوف نعرض لنص حديث العشرة لنرى مدى تخبط القوم حتى في تحديد أصحاب الجنة من بين العناصر التي ضخموها..

يروي أبو داود عن سعيد بن زيد قال: أشهد على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أني سمعته يقول: عشرة في الجنة: النبي في الجنة. وأبو بكر في الجنة. وطلحة في الجنة. وعمر في الجنة. وعثمان في الجنة. وسعد بن مالك في الجنة. وعبد الرحمن بن عوف في الجنة. ولو شئت لسميت العاشر. قال:

فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد.. (١٧)..

وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أبو بكر في الجنة. وعمر في الجنة. وعلي في الجنة. وعثمان في الجنة. وطلحة في الجنة. والزبير بن العوام في الجنة. وعبد الرحمن بن عوف في الجنة. وسعد بن زيد في الجنة. وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة (١٨)..

إن أول ما يدفع للشك في هذه الروايات ويدفع لليقين أنها إنما اخترعت لتضخيم خصوم الإمام وآل البيت الحقائق التالية:

- إن القوم يتخبطون في تحديد من هم العشرة فتارة يدخلون سعد بن أبي وقاص وتارة يضعون مكانه سعد بن مالك..

- إن الرواية الأولى لم تذكر الإمام عليا ولا ابن الجراح وبهذا يكون المبشرون بالجنة سبعة فقط بعد إخراج الرسول من هذه الحسبة بالطبع..

- إن وضعهم النبي من ضمن المبشرين بالجنة أمر يؤكد الوضع والاختلاق..

- إن سيرة هؤلاء العشرة - إن كانوا عشرة - لا توجب لهم هذا الفضل..

- أن راوي الحديث هو أحد المبشرين بالجنة وهو هكذا يبشر نفسه..

- أن البخاري ومسلم لم يذكرا شيئا في باب الفضائل والمناقب عن سعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف..

- أن العشرة الذين اتفق أهل السنة على تعظيمهم وتكريمهم ليس فيهم سعد بن مالك..

- أن الرواية الثانية ذكرت تسعة فقط واستثنت سعد بن أبي وقاص..

ومما يدل على هذا التخبط والاختلاق وأن الأمر تفوح منه رائحة السياسة رواية البخاري التي تحدد أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بشر ثلاثة بالجنة هم أبو بكر وعمر وعثمان..

تقول الرواية: إن أبا موسى الأشعري قال: لأكونن بواب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب..

فقلت: من هذا؟..

فقال: أبو بكر..

فقلت: على رسلك. ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن..

فقال: أئذن له وبشره بالجنة..

فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: أدخل ورسول الله يبشرك بالجنة..

ثم رجعت فإذا إنسان يحرك الباب فقلت من هذا؟..

فقال: عمر بن الخطاب..

فقلت على رسلك. ثم جئت إلى رسول الله فسلمت عليه فقلت هذا عمر بن الخطاب يستأذن..

فقال: أئذن له وبشره بالجنة..

فجئت فقلت أدخل وبشرك رسول الله بالجنة..

ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا يأت به. فجاء إنسان يحرك الباب..

فقلت: من هذا؟..

فقال: عثمان بن عفان..

فقلت: على رسلك. فجئت رسول الله فأخبرته..

فقال: أئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه..

فجئته فقلت له: أدخل وبشرك رسول الله بالجنة على بلوى تصيبك (١٩)..

ومثل هذه الرواية إنما تؤكد أن عليا ليس من المبشرين بالجنة وأن وضعه ضمن العشرة من باب الخطأ..

إن إقدام القوم على إهانة الإمام علي إلى هذا الحد والعمل على التقليل من شأنه لا يشكل أدنى حرج عند القوم. فما داموا قد تجاسروا على الرسول وأهانوه فمن السهل أن يتجاسروا على أهل بيته..

وما دام قد توطن في ذهن المسلم أمر مهانة الرسول ولم يجد حرجا في نسبة ما نسب إليه عن طريق الروايات فإنه بالتالي سوف يتقبل ما يمكن أن يقال وينسب

لآل بيته. وبالتالي تكون النتيجة هي الاستسلام المطلق للخط الآخر..

وما دام هذا هو حال الرسول وأل البيت فكيف يكون حال شيعتهم من الصحابة؟..

ومما يؤكد تناقض القوم وأن الهدف من وراء مثل هذه الروايات هو تضخيم أناس لا وزن لهم رواية مسلم التي تقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة (٢٠)..

وفي رواية أخرى: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا يا رسول الله ولا أنت. قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل (٢١)..

وفي رواية: لا يدخل أحد منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله (٢٢)..

فإذا كان رسول الله يشك في دخوله الجنة فكيف يوقن هؤلاء بدخولها؟..

ويروي البخاري أن عمر لما طعن كان يقول: والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه (٢٣)..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا يقول عمر هذا الكلام وهو من المبشرين بالجنة؟ ويروي مسلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قام خطيبا فقال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وحدا علينا إنا كنا فاعلين. ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم (عليه السلام) ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح. قال فيقال لي أنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ أن فارقتهم (٢٤)..

فهؤلاء الذين ارتدوا بعد وفاة الرسول كيف يكونون عدولا. وكيف يدخلون الجنة؟..

ويروي أبو بكر عن نفسه: والله لو وضعت قدما في الجنة وقدما خارجها ما أمنت مكر الله (٢٥) وهذا أبو بكر أيضا يشك في دخوله الجنة..

ويروي البخاري حديث أبواب الجنة: باب الصلاة وباب الجهاد وباب الصدقة وباب الصيام. فقال أبو بكر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

وهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر (٢٦)..

قال ابن حجر نقلا عن الفقهاء: الرجاء من الله ومن نبيه واقع. وبهذا التقرير يدخل الحديث في فضائل أبي بكر (٢٧)..

إن فقهاء القوم يحاولون لي عنق النص وتفسير الرجاء بمعنى اليقين حتى ينفوا عن أبي بكر شبهة عدم دخوله الجنة. وإذا كانت مكانة أبي بكر عند الرسول كما يصفون فلما ذا لم يقل الرسول: نعم وأنت منهم يا أبا بكر. حتى ينفي الشك من صدور السامعين..

وينبغي لنا هنا أن نعرض لمناقب العشرة المذكورين حتى يتبين لنا كيف تتم عملية التضخيم على حساب الآخرين. ثم نقارن هذه الفضائل والمناقب بمناقب وفضائل من لم يذكروا ضمن العشرة وذلك من أجل وضوح الرؤيا..

يروي البخاري قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أحسن الناس على في صحبته وما له أبو بكر. ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سد. إلا باب أبي بكر (٢٨)..

ومثل هذه المنقبة التي جاء بها البخاري لأبي بكر محل جدل كبير بين فقهاء القوم. إذ أن أكثر الفقهاء يشك في أن أبا بكر كان له دار مجاورة لمسجد الرسول. بل الثابت أن بيته كان بالسنح على أطراف المدينة. وهذا دفع ببعضهم إلى تفسير الحديث على الوجه المجازي. وادعاء أن المقصود بالباب الخلافة والأمر بالسد كناية عن طلبها. والمقصود بهذا التأويل هو دفع الشك عن متن الحديث أولا. وقطع الطريق على خصوم أبي بكر ثانيا..

وينقل ابن حجر قول ابن حبان عن هذا الحديث: في هذا دليل على أنه

الخليفة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه حسم بقوله: سدوا عني كل خوخة في المسجد. أطماع الناس كلهم عن أن يكونوا خلفاء بعده وقال ابن حجر معلقا وقوى بعضهم ذلك بأن منزل أبي بكر كان بالسنح من عوالي المدينة. وهذا الإسناد ضعيف لأنه لا يلزم من كون منزله كان بالسنح أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد (٢٩)..

ومن حيث السند فهذا الحديث فيه شك إذ أن البخاري رواه من طريقين:

طريق فليح ابن سليمان عن أبي سعيد الخدري (٣٠)..

وطريق عكرمة عن ابن عباس (٣١)..

وكلاهما فليح وعكرمة من الخوارج المكفرين للمسلمين المعادين لجميع الصحابة. وقد ذمهم فقهاء القوم ورجال الحديث (٣٢)..

إلا أن الشك في هذه الرواية سوف يزداد إذا ما تبين لنا أن هناك روايات صحيحة بشهادة القوم تنص على أن الرسول أمر بسد جميع الأبواب إلا باب علي (٣٣)..

ومن هذه الروايات يتبين لنا أن الهدف من صنع هذه الفضيلة لأبي بكر هو التمويه على الإمام علي ومعارضة فضائله بفضائل مصطنعة..

ويروي البخاري عن عمرو بن العاص قوله للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة فقلت من الرجال؟ قال:
أبوها. قلت ثم من؟ قال: عمر. فعد رجالا (٣٤)..

ويكفي للرد على هذه الرواية أن راويها عمرو بن العاص حليف معاوية ومدبر أمره في الصراع مع الإمام علي وصاحب فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح في وقعة صفين (٣٥)..

وهل يعقل أن يسأل الرسول عن أحب الناس إليه فيقول زوجتي؟..

إن هذه الإجابة إنما تضع الرسول بين أمرين أما أن يكون غير متفهم للسؤال.
أو أن يكون شغوفا بعائشة إلى الدرجة التي ينشغل بها خياله..

والمعنى الثاني هو ما يريد القوم توكيده من خلال الرواية إذ أن هذا الحب

والشغف سوف ينعكس على أبيها. وهو المقصود.

ثم ما هي الحكمة من محاولة القوم انتزاع الأفضلية على لسان الرسول بهذا الترتيب الذي يجعل من أبي بكر في المقدمة دائما سوى التقليل من شأن الإمام وتصغيره؟..

أن المتأمل في روايات الفضائل الخاصة بأبي بكر وعمر وعثمان سوف يصعب عليه أن يهضمها وأن يستوعبها عقله وتستريح لها نفسه. إلا أن القوم لما حرموا على المسلمين الخوض في المسند خاصة ما يروى في البخاري ومسلم. سدوا طريق التأمل أمام العقل..

يروي البخاري عن أبي هريرة قوله: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: بينما راع في غنمه عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة. فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت: أني لم أخلق لهذا ولكن خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله. قال النبي: فإني أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر (٣٦)..

وإن العقل ليحتار في مثل هذه الرواية إلى أي شئ تهدف؟..

وما هي فضيلة أبي بكر في هذه الحكاية؟..

هل هي إيمانه بنطق الذئب والبقرة؟..

ولماذا يحصر الرسول الإيمان بهذه الحكاية في دائرته مع أبي بكر وعمر؟..

هل هذا يعني أن الآخرين كفروا بها؟..

إن القوم يحاولون استخلاص فضيلة لأبي بكر من خلال هذه الرواية فكانت النتيجة أن حكموا على المستمعين بتكذيب رواية الرسول ورفضها ما عدا أبو بكر وعمر..

وبالطبع من بين المكذبين الذين رفضوا هذه الحكاية الإمام علي..

والعجيب أنه في رواية مسلم لم يكن أبو بكر وعمر موجودان أثناء رواية هذه الحكاية (٣٧)..

ويروي البخاري أنه نشب خلاف بين أبي بكر وعمر فأقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أما صاحبكم فقد غامر. فسلم وقال يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت. فسألته أن يغفر لي فأبى علي. فأقبلت إليك.
فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثا). ثم إن عمر ندم. فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى النبي. فجعل وجه النبي يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه - أي عمر - فقال: يا رسول الله. والله أنا كنت أظلم (مرتين). فقال النبي: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق. وواساني بماله ونفسه. فهل أنتم تاركون لي صاحبي (مرتين) فما أوذي بعدها (٣٨)..

ومثل هذه الرواية إنما تذم أبا بكر وعمر لا تمدحهما. إذ أن الأمر على ما يبدو كان صداما ولم يكن مجرد مشادة كلامية..

وبالطبع لم يخبرنا الرواة حقيقة ما حدث بينهما ولم يشر القوم إلى حقيقة الأمر في تفسيراتهم لهذه الرواية. إلا أن ظاهر الرواية يكشف لنا أن أبا بكر وقع في عمر وعمر وقع في أبي بكر وهذا الأمر في حد ذاته يعد نقصا فيهما..

وعلى ما يبدو من الرواية فإن الرسول كان منحازا لأبي بكر وقاسيا على عمر وهذا الانحياز ليس له ما يبرره سوى أن القوم يريدون رفع مكانة أبي بكر. ولكن الرفع هذه المرة جاء على حساب عمر..

هوامش

(١) - أنظر البخاري كتاب النكاح. باب ذب الرجل عن ابنته.. ومسلم باب فضائل فاطمة.

(٢) - المرجع السابق. وانظر مسلم.

(٣) - أنظر مسلم.

(٤) - أنظر فتح الباري (ح ٩ / ٣٢٧) وما بعدها.

(٥) - أنظر مسند أحمد (ج ٢) مسند الإمام علي.

(٦) - أنظر البخاري كتاب العلم. وكتاب الوضوء. ومسلم كتاب الحيض.

(٧) - أنظر المراجع السابقة.

(٨) - أنظر مسند أحمد (ج ٢).

(٩) - أنظر البخاري. باب كتابة العلم وباب فتاك الأسير. وأنظر أحمد وأصحاب السنن.

(١٠) - أنظر البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب فضل أبي بكر.

(١١) - أنظر المرجع السابق باب فضائل علي.

(١٢) - المرجع السابق.

(١٣) - المرجع السابق. كتاب الفرائض باب ٣. وانظر كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب ٥. وكتاب النفقات باب ٣. وانظر الترمذي كتاب السير. وأحمد (١ / ٤٩).

(١٤) - البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب فضل أبي بكر.

(١٥) - يروي أحمد سئل عبد الرحمن بن عوف: كيف بايعتم عثمان وتركتم عليا؟ قال: وما ذنبي. قد بدأت بعلي فقلت أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر فقال: فيما استطعت ثم عرضتها على عثمان فقبلها.. أحمد (ج ٢). وما يذكر هنا أن عثمان خرج على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الشيخين. أنظر وقائع اختيار عثمان من بين الستة الذين حددهم عمر في كتب التاريخ.

(١٦) - أنظر أبو داود حديث رقم (٤٦٤٩ و ٤٦٥٠) وانظر العقيدة الطحاوية.

(١٧) - أنظر الترمذي (ج ٤ / ٣٣٤).. وأبو داود.

(١٨) - أنظر المرجعين السابقين.

(١٩) - أنظر البخاري ومسلم كتاب فضائل الصحابة. باب فضل أبي بكر ومناقب عمر وعثمان.

(٢٠) - أنظر مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.

(٢١) - المرجع السابق.

(٢٢) - المرجع السابق.

(٢٣) - أنظر البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب عمر.

(٢٤) - أنظر المرجع السابق كتاب الفتن وكتاب الرقاق.

(٢٥) - أنظر الطبري (ج ٢) والسيرة النبوية لابن هشام. وكنز العمال (ج ٥).

(٢٦) - أنظر البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب فضل أبي بكر.

(٢٧) - أنظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٩).

(٢٨) - أنظر البخاري باب فضل أبي بكر.

(٢٩) - أنظر فتح الباري (ج ٧ / ٢٩).

(٣٠) - أنظر المرجع السابق.

(٣١) - أنظر المرجع السابق.

(٣٢) - قال ابن معين في فليج: ليس بثقة. وقال أحمد: كان يرى رأي الصفرية من الخوارج. أما عكرمة فقد كذبه ابن عمر وابن المسيب ويحيى بن سعيد وابن سيرين. انظر كتب علم الرجال.

(٣٣) - أنظر الترمذي كتاب المناقب. ومسند أحمد (ج ١ / ١٧٥ و / ٣٣٠).

(٣٤) - أنظر البخاري. باب فضل أبي بكر.

(٣٥) - أنظر كتابنا السيف والسياسة في الإسلام. وانظر ترجمة عمرو بن العاص في كتب التراجم.

(٣٦) - أنظر البخاري. باب فضل أبي بكر.

(٣٧) - أنظر مسلم. كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل أبي بكر.

(٣٨) - البخاري. باب فضل أبي بكر.

عمر

ويروي البخاري عن ابن عباس قوله: إني لواقف في قوم فدعوا الله لعمر بن الخطاب وقد وضع على سريره - حين طعن - إذا رجل من خلفي قد وضع مرفقه على منكبي يقول: رحمك الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأني كثيرا ما كنت أسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: كنت وأبو بكر وعمر. وفعلت وأبو بكر وعمر. وانطلقت وأبو بكر وعمر. فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما فالتفت أي ابن عباس - فإذا هو علي بن أبي طالب [1]..

وهذه الرواية كحال سابقتها التي نصت على اعتراف الإمام بالخلفاء حين سأله ولده ابن الحنفية الهدف منها هو هدف ساقتها وهو دعم مشروعية خلافة أبي بكر وعمر بعلي. ودعم مكانتهما به. وإثبات أفضليتهما عليه بلسانه..

ويبدو أن القوم يتخيرون إسناد مثل هذه الروايات إلى عناصر موالية للإمام علي حتى يقطعوا دابر الشك فيها ويؤكدوا وقوعها على لسان الإمام..

من هنا فإن مثل هذه الروايات كثيرا ما ينسبونها لابن عباس وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وعمار بن ياسر ومحمد بن الحنفية وغيرهم من شيعة الإمام..

وبخصوص مناقب عمر فحالها كحال مناقب أبي بكر. فمعظم الروايات تربط بينهما في الفضائل وهذا الأمر إن دل على شئ فإنما يدل على أن كليهما مكانته واحدة..

ولكن إذا صح هذا الاستنتاج فلماذا قدم أبو بكر عليه؟..

إن محاولة الربط بين أبي بكر وعمر إنما هي من صنع السياسة. فالمتأمل في الأحداث التي وقعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، يكتشف أن كليهما لم يكن له ما يميزه عن الصحابة. ولو كان الأمر كذلك لما حدث الصدام معهما في سقيفة بني ساعدة (٢).

وحتى إن أبا بكر أعلن أمام الناس حين ولي الخلافة قوله: وليت عليكم ولست بخيركم (٣) وكانت ممارسات عمر ومواقفه في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد وفاته قد ولدت جبهة معادية له حتى أن البعض عاتب أبا بكر حين وصى له بالخلافة من بعده وقالوا: أتولي علينا فظا غليظ القلب (٤)..

والذي يستريح إليه العقل أن مشروعية كل منهما تعتمد على الآخر. ولولا اتحادهما سويا ما كان من الممكن أن يسود على المسلمين. هذا مع ملاحظة أن شخصيتي أبي بكر وعمر أكثر الشخصيات ملائمة لتبنى عليهما مشروعية بني أمية (٥)..

وحتى تتضح لنا الصورة أكثر سوف نعرض لبعض الروايات الخاصة بعمر..

يروي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأيتني دخلت الجنة. فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة. وسمعت خشفة فقلت من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيت قصرا بفنائه جارية فقلت لمن هذا؟ فقال: لعمر. فأردت أن أدخله فأنظر إليه. فذكرت غيرتك..

فقال عمر بأبي وأمي يا رسول الله. أعليك أغار (٦)..

إن الحقيقة التي تتجلى إمام كل ذي عقل عند قراءته هذه الرواية هي أن عمر أعلى مرتبة من الرسول. إذ حصل على مكان في الجنة دهش الرسول لرؤيته وبهر به حتى أنه أراد أن يدخله فخاف من غيرة عمر..

هل يجوز مثل هذا الكلام في حق الرسول؟..

ألا يعني هذا أن ما حصل عليه عمر في الجنة يفوق نصيب الرسول؟..

ثم هل هناك غيرة في الآخرة؟..

ولنترك هذا الحديث إلى حديث آخر يرويه البخاري أيضا: قال

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بينما أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري - أو من أظفاري - ثم ناولت عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله - أي فسرته - قال: العلم (٧)..

وهذه الرواية أن صحت فإنها تعني أن عمر أفقه الصحابة وأفقه من أبي بكر. إلا أن القوم لا يقولون بذلك. أي لا يقولون بتفوقه على أبي بكر ولكن على غيره صحيح..

إلا أن الواقع لا يشهد بذلك. فالثابت أن عمر اجتهد على نصوص كثيرة وأوقع الناس في حرج. كما وقع في أخطاء كثيرة لا تدل على محصلة علمية لديه (٨)..

ولو كان عمر فقيها ما طاف في المدينة يهدد الناس حين توفى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زاعما أنه ما مات وأنه سوف يعود ليقطع أيدي رجال وأرجلهم حتى جاء أبو بكر فبين له حقيقة الأمر فسكن (٩)..

ولو كان عمر فقيها ما قال لعلي: لولا علي لهلك عمر (١٠)..

ولو كان فقيها ما صعد المنبر ليتكلم في أمر فيخطئ وترده امرأة. فيقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر (١١)..

ولو كان فقيها لاستغنى بفقهه عن الآخرين وما اضطر إلى حجز كبار الصحابة في المدينة ليسترشد بهم ويستفتيهم (١٢)..

ويروي البخاري عن قيس قال: قال: عبد الله: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر (١٣)..

ولا شك أن مثل هذه الرواية التي تربط عزة الإسلام بعمر إنما توجه ضربة قاضية للإمام علي وتمحو دوره بالكلية من تاريخ الإسلام. والحمد لله أنها لم تأت على لسان الرسول وإنما وردت على لسان صحابي..

وإن الباحث في سيرة الرسول لا يجد دورا بارزا لعمر يستحق أن تربط عزة الإسلام به. فهو من الذين فروا في أحد. ولم يجرؤ على الخروج لمبارزة عمرو بن ود في غزوة الخندق وخرج إليه الإمام وقتله ولم يفتح الله على يديه في خيبر وفتح

على يد الإمام..

ويروي البخاري أن عمر دخل على الرسول وعنده نسوة من قريش يكلمنه. فلما ظهر عمر قمن فبادرن الحجاب. فقال عمر: يا عدوات أنفسهن. أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ فقلن نعم. أنت أفظ وأغلظ من رسول الله. فقال الرسول: إيها يا ابن الخطاب. والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط. إلا وسلك فجا غير فجك (١٤)..

وهذا الحديث لا ينطق بمدح لعمر بل ينطق بذم له كما هو واضح من قول النسوة: أنت أفظ وأغلظ. ولو كان عمر بهذه المكانة التي تصورها الروايات ما تجرأت النسوة عليه..

ويحتار العقل في محاولة الربط بين حادثة عمر مع النسوة وبين قول الرسول له: ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط. إلا وسلك فجا غير فجك. ما هي الصلة بين هذه الحادثة وبين الشيطان؟ هل يريد الرسول أن يقول أن النسوة شياطين لما هبن عمر تذكر الرسول عمر وشيطانه؟..

يبدو أن الراوي لم يحسن ضبط الرواية. وكان من الأجدر به أن يفصل الحادثتين عن بعضهما ويجعل كلا منهما في رواية مستقلة..

إلا أن هناك رواية عند مسلم تكذب هذه الرواية وتكشف تناقض القوم في اختلاقهم الأحاديث باسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

يروي مسلم عن عائشة قالت: خرج رسول الله ليلا فغرت عليه. فجاء فرأى ما أصنع فقال: ما لك يا عائشة أغرت؟ فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك. فقال: أقد جاءك شيطانك قلت يا رسول الله أو معي شيطان. قال: نعم. قلت: ومع كل إنسان. قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول الله. قال: نعم ولكن ربي أعانني عليه فأسلم. وفي رواية أخرى: فلا يأمرني إلا بخير (١٥)..

فإذا كان كل إنسان معه شيطان حتى عائشة أم المؤمنين فلماذا يستثنى عمر من هذا؟ وإذا كان الرسول معه شيطان أعانه الله عليه. فمن الذي أعان عمر على شيطانه بحيث أصبح يفر منه كلما رآه؟..

يروي البخاري عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:
لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء.
فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر (١٦)..

إن المتابع لسيرة عمر الفقهية يتبين له مدى اختلاق هذه الرواية. فلم يكن عمر من متكلمي القوم ولا كان من فلاسفتهم. ولو كانت هذه المكانة حقا له لكان أجدر به أن يتولى الخلافة بعد رسول الله لا أن يفسح الطريق لأبي بكر ويعلن الحرب على خصومه من الأنصار وغيرهم..

ويروي أحمد والترمذي وابن حبان قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لو كان بعدي نبي لكان عمر..

ويقول ابن حجر: والسبب في تخصيص عمر بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الموافقات ولكن ما الذي جعل أبا بكر يتقدم على عمر؟ (١٧) ..

وهل يجوز للرسول أن يفترض وجود نبي بعده وهو خاتم الأنبياء؟..

يروي مسلم على لسان عمر قوله: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم. وفي الحجاب. وفي أسارى بدر (١٨)..

ويقول ابن حجر: والمعنى وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت. ولكن لرعاية الأدب أسند الموافقة إلى نفسه (١٩)..

إن مثل هذا القول لا يعني إلا شيئا واحدا وهو أن القرآن كان يتنزل على رأي عمر. وهذا يعني أن عمر تفوق على الرسول. وهو يشكك من جهة أخرى في القرآن. الذي كان يتنزل على حسب رأي عمر..

والنصوص لا تقول بذلك فالقرآن كان يتنزل بأمر الله ليبلغه رسوله إلى الناس. فلم يكن الرسول يعلم ما سوف ينزل عليه. وإذا كانت هناك موافقة حقا فإن الحقيقة بها هو الرسول وليس عمر..

يروي مسلم أنه لما توفي عبد الله بن أبي سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه.

ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليصلي عليه. فقام عمر فأخذ بثوب الرسول. فقال يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه. فقال الرسول: إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على سبعين. قال - أي عمر - إنه منافق.
فصلى عليه رسول الله وأنزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم علي قبره (٢٠)..

وهذا الحديث يشير إلى دلالات خطيرة ليست في صالح عمر بل تضعه في موقف محرج شرعا. فالقوم أرادوا أن يثبتوا له منقبة الفقه فطعنوا في الرسول..

وأرادوا أن يثبتوا له الموافقة مع القرآن فأوقعوه في الرسول..

أما الدلالات التي يشير إليها الحديث فهي:

- أن الرسول كان يجهل النهي وذكره به عمر..
- أن الرسول أصر على موقفه المخالف للقرآن..
- أن عمر جذبه من ثوبه كي يمنعه من ارتكاب هذه المخالفة..
- أن الرسول تحايل على النص القرآني بمنع الاستغفار للمنافقين..
- أن القرآن نزل يوافق عمر..

وما يثير الشك في هذا الحديث هو أن آية النهي عن الصلاة على المنافقين نزلت بعد صدام عمر مع الرسول. بينما عمر يقول للرسول: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه قبل نزولها. فهل كان عمر يعلم الغيب؟ أم كان على اتصال بالوحي؟..

إن مثل هذا الموقف من عمر - على فرض التسليم بصحة هذه الرواية - يضعه في زمرة المنافقين إذ كيف لصحابي أن يعترض على الرسول بهذه الطريقة ويخاطبه بهذا القول الذي هو من أخص خصائصه وهو الحي. وكأن الرسول لا يعرف الأمر والنهي ثم هو يجذبه من ثوبه. أليس مثل هذا الموقف يشكك في مصداقية الرسول ويقلل من هيبته أمام المسلمين؟ وكيف تبارك السماء مثل هذا السلوك من عمر مع رسول الله وتنزل القرآن موافقة لموقفه. ألا يعني هذا أن ثقة السماء قد

ضعفت برسول الله؟..

ويروي مسلم عن عائشة قالت: أن أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح. وكان عمر يقول لرسول الله أحجب نساءك فلم يكن رسول الله يفعل. فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب. قالت عائشة: فأنزل الله الحجاب.. (٢١)

وفي رواية يقول عمر لسودة: والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين. فرجعت سودة وأخبرت الرسول بقول عمر.. (٢٢)

قال القسطلاني: فيه - أي في الحديث - منقبة عظيمة ظاهرة لعمر. وفيه تنبيه أهل الفضل والكبار على مصالحهم ونصيحتهم وتكرار ذلك.. (٢٣)

وقال ابن حجر: والحاصل أن عمر وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوي. حتى صرح بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): أحجب نساءك. وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب.. (٢٤)

وهذا الحديث كسابقه يضع عمر في موضع الحرج في محاولة لصنع منقبة له وإثبات موافقة القرآن لرأيه. فهو قد تطاول على الرسول وتطاول على نسائه.

وبالتأمل فيه نخرج بالنتائج التالية:

- أن عمر كان يأمر الرسول بأن يحجب نساءه..
- أن الرسول كان يهمل أمر الحجاب..
- أن عمر كان يعرض بامرأة الرسول..
- أن عمر كان يرصد حركات نساء الرسول ليلا..
- أن الوحي نزل مؤيدا لموقف عمر..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل كان عمر حريصا على نزول الأحكام من السماء إلى هذا الحد الذي يجعله يتربص بنساء النبي ليلا وينادي عليهم ليحرجهم كي لا يخرجن من بيوتهن ثم يظل يلح على النبي بالحجاب حتى ينزل أمر

الله به؟..

إن مثل هذا الأمر لأكبر مهانة لرسول الله. إذ يصوره بلا غيرة على نساءه وأن غيرة عمر عليهن أكبر من غيرته. حتى أنه وقع في قلبه نفرة من هذا الوضع كما يعبر ابن حجر - من كشف نساء النبي أمام الأجانب. بينما الرسول لا يبالي بشئ..

ويبدو أن الذين اخترعوا هذه الرواية أحسنوا حبكها بوصفهم سودة بأنها كانت امرأة طويلة أو امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها حسب نص الروايات. ولو لم يقولوا ذلك لشك القوم فيها إذ كيف لعمر أن يحدد في الليل البهيم شخصية زوجة النبي؟..

هوامش

(١) - البخاري كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب عمر بن الخطاب.

(٢) - أنظر كتب التاريخ. وأنظر كتابنا السيف والسياسة.

(٣) - هذا الكلام قاله أبو بكر في خطبة له حين تولى الخلافة. أنظر كتب التاريخ.

(٤) - أنظر كتب التاريخ.

(٥) - أنظر كتابنا السيف والسياسة.

(٦) - البخاري. باب مناقب عمر.

(٧) - المرجع السابق.

(٨) - أنظر كتاب النص والاجتهاد ط بيروت. وأنظر كتابنا فقه الهزيمة.

(٩) - البخاري. باب فضل أبي بكر.

(١٠) - أنظر تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي. وأنظر طبقات ابن سعد (ح ٢ / ٣٣٩). وكان عمر يقول: علي أقضانا. وعن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن.

(١١) - أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي وكتب التاريخ.

(١٢) - كان عمر قد وضع كبار الصحابة تحت الإقامة الجبرية في المدينة بحجة المشورة. ويبدو أنه كانت هناك أهدافا أخرى لهذا الاحتجاز. أنظر تاريخ عمر لابن الجوزي وكتب التاريخ.

(١٣) - البخاري. باب مناقب عمر.

(١٤) - المرجع السابق.

(١٥) – مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب تحريش الشيطان.

(١٦) – البخاري. مناقب عمر.

(١٧) – فتح الباري (ج ٧).

(١٨) – مسلم. كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل عمر بن الخطاب.

(١٩) – أنظر فتح الباري (ج ٧) مناقب عمر.

(٢٠) – مسلم. فضائل عمر.

(٢١) – مسلم. كتاب السلام. باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان.

(٢٢) – المرجع السابق.

(٢٣) – المرجع السابق (ص ٧).

(٢٤) – أنظر فتح الباري.

عثمان

ونكتفي بهذا القدر من الروايات القوم في تضخيم عمر ونتجه إلى عثمان..

يروي مسلم: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مضطجعا في بيت عائشة كاشفا عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك. فتحدث. ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه. فسألته عائشة عن ذلك.؟..

فقال: ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟.. (١)..

مرة أخرى يحاول القوم تضخيم شخصية فيحطون من الرسول ويمتهنونه.

ويصورونه كاشفا فخذيه أمام الناس دون حياء حتى إذا جاء عثمان استحيا منه.

فهل يعني هذا أن الرسول لم يكن يضع اعتبارا لأبي بكر وعمر الجالسين إلى جواره ويضع هذا الاعتبار لعثمان؟ ألا يشير ذلك إلى أن مكانة عثمان أكبر من مكانة الشيخين؟..

ويروي البخاري أن رجلا من أهل مصر سأل ابن عمر عن عثمان. فقال:

هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال ابن عمر: نعم. فقال الرجل: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم قال الرجل: الله أكبر. فقال ابن عمر: تعال أبين لك. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له. وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله وكانت مريضة. فقال له الرسول: إن لك

أجر من شهد بدر وسهمه. وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه. فبعث رسول الله عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول الله بيده اليمني: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان. فقال ابن عمر للرجل: اذهب بها الآن معك (٢)..

إن مثل هذه الرواية إنما تكشف أمامنا عدة حقائق:

- أن المدافع عن عثمان هو ابن عمر..

- أن الأسئلة الثلاثة تكشف أن هناك مواقف عدائية من عثمان..

- أن ابن عمر قد أقر بفرار عثمان يوم أحد..

- أن ابن عمر لم يأت بالدليل على أن الله قد غفر له فعلته هذه..

- أن راوي الحديث قد أخطأ في ترتيب الأحداث وكان يجب أن يسأله عن تغيبه عن بدر أولا ثم يسأله عن أحد. لأن أحدا بعد بدر.. وأمر مثل هذا ما كان يجب أن يخفى عن البخاري وفقهاء القوم فهو يشكك في الرواية..

- أن الثابت تاريخيا أن الرسول لم يكن له بنات سوى فاطمة. وأن رقية وأم كلثوم وزينب ربائبه..

- أن زواج عثمان من رقية وأم كلثوم فيه خلاف والأرجح عدم حدوثه..

- أنه لم يثبت أن الرسول بعث عثمان إلى أهل مكة وقت بيعة الرضوان..

وينقل ابن حجر رواية للبزار أن عثمان عاتب عبد الرحمن بن عوف فقال له: لم ترفع صوتك علي؟ فذكر الأمور الثلاثة غيابه عن بدر وفراره من أحد وتخلفه عن بيعة الرضوان. فأجابه عثمان بمثل ما أجاب به ابن عمر (٣)..

ورواية البزار هذه إنما تؤكد التهم الموجهة لعثمان إذ أن الذي يتهمه بها واحد من أنصاره وحلفائه وهو الذي مهد له للوصول إلى الحكم. فهو ممن يعرفون تاريخ. عثمان جيدا.. ويلاحظ في كتب الأحاديث خاصة البخاري ومسلم تكرار الأحاديث التي تربط الخلفاء الثلاثة ببعضهم عند الحديث عن مناقب وفضائل كل خليفة على حده..

فحديث: أثبت أحد فإن عليك نبيا وصديقا وشهيدين..

وحديث: إئذن له وبشره بالجنة..

وحديث: كنا في زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب رسول الله..

وحديث ابن الحنفية: أي الناس خير بعد رسول الله..

وحديث: إني لكنت أرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك..

وتكرار مثل هذه الأحاديث التي تجمع الثلاثة إنما يؤكد أن هناك محاولات متعمدة لربط الثلاثة ببعضهم بصورة تجعل من الصعب التفريق بينهم. وإذا ما تطرق الشك إلى أحدهم فإن الآخر سوف يدعمه ويبدد هذا الشك عنه. وغالبا ما سوف يتجه الشك لعثمان إذ أن تاريخه لا يبرر له هذه المكانة التي وضعوه فيها فمن ثم فإن ربطه بأبي بكر وعمر سوف يقوي من موقفه ويغطي على مساوئه..

ولما كانت محاولة المساس بعثمان سوف تكون نتيجتها المساس بأبي بكر وعمر.

فقد وضع القوم المحاذير الصارمة التي تحول دون الخوض في عثمان والتي هي نفس المحاذير التي تمنع من الخوض في أبي بكر وعمر..

ومن هنا فقد أحاط القوم الخلفاء الثلاثة بهالة من القداسة وكم هائل من النصوص التي تشكل حاجزا منيعا يحول دون الخوض أو حتى مجرد التفكير في نقدهم..

أما الإمام علي فإنهم وإن كانوا قد وضعوه رابع الخلفاء فهم لم يوقروه ويعظموه كما عظموا الثلاثة ويكفي أن وضعوه رابعهم ونقلوا الكثير من الروايات التي تحط من قدره وتشكك في علمه ومكانته وتبرر وضعه في مؤخرة الخلفاء على ما سوف نبين عند عرض مناقب الإمام في روايات القوم..

ومثل هذا الأمر إنما يؤكد أن مسألة الخلفاء إنما هي مسألة مخترعة من قبل السياسة وأن القوم يتخبطون في محاولة دعم هذه المسألة بالنصوص..

يروي مسلم: سئلت عائشة من كان رسول الله مستخلفا لو استخلف.

قالت: أبو بكر فقيل لها ثم من بعد أبي بكر. قالت: عمر. ثم قيل لها من بعد

عمر. قالت: أبو عبيدة بن الجراح وكما يظهر من هذه الرواية أن عائشة أطاحت بعثمان من بين الثلاثة الذين أجمع عليهم القوم ووضعت مكانه أبي عبيدة مناقضة بذلك كل النصوص الأخرى التي تضع عثمان من وراء عمر. فمن نصدق: عائشة أم القوم؟..

يروي الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة قال: دخلت رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امرأة عثمان وبيدها مشط. فقالت: خرج رسول الله من عندي آنفا رجلت شعره فقال لي: كيف تجدين أبا عبد الله عثمان؟ قلت: قال: أكرميه فإنه من أشبه أصحابي بي خلقا (٤)..

ويعلق الحاكم على هذه الرواية بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد واهي المتن. فإن رقية ماتت سنة ثلاث من الهجرة عند فتح بدر وأبو هريرة إنما أسلم بعد فتح خيبر سنة سبع (٥)..

وقال الذهبي: هذا حديث منكر المتن. فإن رقية ماتت وقت بدر وأبو هريرة أسلم وقت خيبر (٦) ومثل هذه الرواية التي نجد منها كثيرا في كتب القوم إنما تدل على محاولات الوضع والتضخيم لشخصيات مهزوزة. وتخبط القوم فيها إنما يعود سببه إلى حيرتهم بين نكران السند ونكران المتن. فهم قد أنكروا المتن هذه المرة ولم ينكروا السند كما جرت على ذلك عادتهم. وهذا قمة التناقض. وليتهم ساروا على هذا النهج مع الروايات الأخرى لكان من الممكن أن يريحونا من كم كبير من الروايات المخترعة لتضخيم الرجال. ولكنها السياسة..

أما ما يتعلق ببقية العشرة فقد جاء القوم بروايات تسهم في زيادة الحيرة وترفع من درجة الشك في المسألة من أساسها.

فعن الزبير بن العوام أحد العشرة يروي البخاري، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة عن مروان بن الحكم قوله: كنت عند عثمان إذ أتاه رجل فقال: استخلف؟ قال: وقيل ذلك؟ قال: نعم. الزبير. قال: أما والله إنكم لتعلمون أنه خيركم. ثلاثا..

ومثل هذه الرواية لا تدل عن منقبة ولا شئ. وليست سوى شهادة من عثمان لصالحه. وهي شهادة لا ترفع من قدره لكونها صادرة ممن يحتاج إلى من يرفع

قدره..

ويكفي أن الراوي هو مروان بن الحكم الذي لعنه الرسول وهو في صلب أبيه..

ويروي البخاري قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أن لكل نبي حواريا. وأن حواريي الزبير بن العوام..

كما يروي أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال للزبير: فداك أبي وأمي..

وبالطبع فإن المقصود من جعل الزبير من حواريي الرسول هو منازعة الإمام علي في مكانته الخاصة القريبة من الرسول. ثم إن تعميم هذه الفضائل من شأنه أن ينفي الشك عن أن تكون الفضائل خاصة بفئة محددة..

ويروي مسلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أو عبيدة بن الجراح..

ويروي مسلم عن سعد بن أبي وقاص: قالت عائشة أرق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات ليلة فقال ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة. قالت وسمعنا صوت السلاح. فقال الرسول من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص يا رسول الله جئت أحرسك. قالت عائشة فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه..

ومثل هذه الرواية إنما تثير عدة تساؤلات..

الأول: هل كان الرسول يخاف من شئ ما؟ وما هو هذا الشئ؟..

الثاني: أين بقية الصحابة ولماذا تركوا الرسول بلا حواسة؟..

الثالث: وجود عائشة معه هل يعني أنه كان في بيته أم في غزوة من الغزوات؟ فإذا كان في بيته فلماذا يخاف؟ وإذا كان في غزوة أين الصحابة..

الرابع: لماذا سعد بالذات الذي تطوع لحراسة الرسول؟ هل يعني هذا أن الإمام عليا تقاعس عن حراسته؟..

ويروي البخاري أن أناسا وشوا به - إي بسعد - إلى عمر. قالوا: لا يحسن

أن يصلي..

وعن طلحة يروي البخاري قول عمر: توفي النبي وهو عنه راض..

ويروي عن أبي حازم قوله: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد شلت..

أما بقية العشرة سعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف فلم يرو البخاري أو مسلم شيئا عن مناقبهما. فإذا كانا بلا مناقب فكيف يوضعان ضمن العشرة المبشرين بالجنة؟..

وإذا ما تطرقنا إلى الآخرين من الصحابة أتباع الإمام مثل بلال وسلمان وعمار وحذيفة والمقداد وأبي ذر فإن القوم قد مروا عليهم مرور الكرام وكأن هؤلاء ليس لهم دور في الإسلام وليست لهم مكانة..

لقد جعل البخاري لمعاوية بابا أسماه باب ذكر معاوية في الوقت الذي لم يذكر شيئا عن مناقب أبي ذر الغفاري. وجمع عمارا وحذيفة في باب واحد وبرواية واحدة..

يروي البخاري عن عمار وحذيفة وأن علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين ثم قلت اللهم يسر لي جليسا صالحا فأتيت قوما فجلست إليهم فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبي. قلت من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء. فقلت: أني قلت من أهل الكوفة. قال أو ليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوسادة المطهرة؟ أو ليس فيكم الذي أجاره الله من الشيطان عمار يعني على لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم). أو ليس فيكم صاحب سر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي لا يعلم أسماء المنافقين أحد غيره حذيفة (٧) ..

وعن بلال يروي البخاري عن عمر قوله: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا (٨)..

ويروي أيضا أن بلالا قال لأبي بكر: أن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني.

وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني أعمل لله (٩)..

ويروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله في بلال: سمعت دف

نعليك بين يدي في الجنة (١٠)..

أما مسلم فقد روى في بلال الرواية السابقة بينما روى في أبي ذر رواية واحدة هي قصة إسلامه ولقائه الرسول بمكة ولم يرو شيئا من فضائل حذيفة أو عمار أو غيره من أصحاب الإمام بينما جعل بابا في فضائل أبي هريرة وابن عمر وأبي سفيان (١١)..

ويروي مسلم عن بلال وسلمان وصهيب الرواية التي ذكرناها سابقا حين اصطدم بهم أبو بكر لمهاجمتهم أبي سفيان وقال له الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك وما نخرج به من هذه الروايات هو ما يلي:

- أن حذيفة وعمارا لهما مكانة خاصة فالأول صاحب سر النبي والثاني مجار من الشيطان..

- أن هذه المكانة لم تضعهما في المكان الصحيح والملائم لهما عند القوم..

- أن القوم لم يبينوا لنا لماذا اختص حذيفة دون غيره بسر النبي عن المنافقين؟..

- أن رواية البخاري في بلال على لسان عمر لا تعطي قدرا له فإنما هي شهادة لصالح أبي بكر أكثر منها لصالح بلال..

- أن قول بلال لأبي بكر يشير إلى صدام وقع بينهما بعد وفاة الرسول (١٢)..

- أن قول الرسول في بلال يؤكد أنه من المبشرين بالجنة. وهذا يفرض طرح السؤال التالي: لماذا لم يوضع بلال ضمن العشرة المبشرين بالجنة؟..

- أن رواية مسلم عن بلال وسلمان وصهيب تؤكد أن مكانتهم أعلى من مكانة أبي بكر..

هوامش

(١) - مسلم. كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل عثمان.

(٢) - البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب عثمان.

(٣) - فتح الباري (ج ٧ / ٥٩).

(٤) - مستدرك الحاكم (ج ٤).

(٥) - المرجع السابق.

(٦) - تلخيص المستدرك.

(٧) - البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب عمار وحذيفة.

(٨) - البخاري. كتاب فضائل الصحابة. باب مناقب بلال.

(٩) - المرجع السابق.

(١٠) - المرجع السابق. ومسلم كتاب الفضائل باب من فضائل بلال.

(١١) - أنظر كتاب الفضائل.

(١٢) - كان هذا الصدام في خلافة أبي بكر حين رفض بلال أن يؤذن لأحد بعد الرسول وقرر الرحيل من المدينة وأراد أبو بكر منعه. ومثل هذا الحدث يدل على أصحاب الإمام كانت لهم مواقف من أبي بكر ومن عمر.. أنظر فتح الباري (ج ٧ / ٩٩). وكتب التاريخ.

الطرح الشيعي

عوامل الجذب

هناك عدة عوامل جذبتني لخط آل البيت وللأطروحة الشيعية. وهذه العوامل منها ما يتعلق بالأطروحة السنية..

ومنها ما يتعلق بالواقع الإسلامي..

ومنها ما يتعلق بشخصي.. ومنها ما يتعلق بالأطروحة الشيعية..

أما ما يتعلق بالأطروحة السنية فهو ما قد بيناه من أن هذه الأطروحة إنما هي وليدة السياسة وتقديم فقه الرجال على فقه النصوص وهذا الخلل الحقيقي فيها والذي يتجنب القوم علاجه وأما ما يتعلق بالواقع الإسلامي فهو يتمثل في تلك التجربة الطويلة التي عشتها مع التيارات الإسلامية ولمست فيها عن قرب مدى المأزق الفكري والحركي الذي تعيشه هذه التيارات بسبب هذه الأطروحة وبالنسبة لشخصي فقد عشت فترتي السنية رافعا شعار العقل فلم أجد لي مكانا بين القوم ولاحقتني الإشاعات والاتهامات وأدركت فيما بعد أن أستخدام العقل عند القوم يعني الزندقة والضلال ولقد كنت أدرك جيدا أن التنازل عن العقل يعني الذوبان في الماضي وبالتالي يصبح المرء بلا شخصية يواجه بها الواقع..

وأذكر عند ما كنت رهن الاعتقال في أوائل الثمانيات أن عرض على بعض قادة تيار الجهاد مشاركتهم في النشاط الفكري الذي يجري داخل المعتقل تحت إشرافهم. فرفضت هذه الطلب متعللا بما يلي:

* إنني لن أعرض ما أعرض دون تمحيص ودون إعمال العقل فيه وهذا لن

يرضيكم..

* إنني في حالة الموافقة بين أمرين..

إما أن أصطدم بكم بطرحي المتناقض مع طرحكم..

وإما أن أستسلم لأطروحتكم وأتكلم بلسانكم وفي هذه الحالة لن أضيف جديدا. إن التسلح بالعقل سوف يمنح المرء القدرة على الاختيار. ومن ثم فقد كان تسلحي بالعقل العامل الأساس في دفعي نحو خط آل البيت واختياره. ولم يكن هذا ليتم لولا تسلحي بالعقل الذي أعانني على تحطيم الأغلال التي كان يكبلني بها الخط السني (١)..

أما ما جذبني لخط آل البيت ودفعني نحو التشيع فيما يتعلق بالأطروحة الشيعية فهو ما يلي:

ـ القرآن والعقل.

أنزل الله القرآن ليحكم بين الناس ويكون دستورا لحياتهم. إلا أن الناس مع مرور الزمن وطول الأمد ورثوا الكثير من الروايات والاجتهادات التي غلبت على حياتهم فاستسهلوها وتناولوا منها دينهم وبالتالي أهملوا القرآن. وقد ساعد على نمو هذه الحالة ودعم هذا الوضع الحكام إذ وجدوا فيه وسيلة لتخدير المسلمين وإلزامهم بطاعتهم. فهذا الكم من الروايات التي توجب طاعتهم تتناقض مع القرآن ولذا عملوا على عزل القرآن عن واقع المسلمين..

أما من شذ عن هذا الوضع وأعمل عقله فكانت تلصق به تهمة الزندقة لتبرير الخلاص منه والقضاء على دعوته..

وكم سقط من شهداء على هذا الطريق بأيدي الحكام وبأيدي الفقهاء (٢). ولو كان القرآن والعقل قد أخذا دورهما في مسيرة الإسلام ما كانت قد وصلت الأمة إلى ما وصلت إليه من الخنوع والتشرذم وعبادة الرجال..

ففي غيبة القرآن اخترعت الكثير من الروايات المضللة..

وفي غيبة العقل سادت هذه الروايات وحلت محل القرآن..

في غيبة القرآن اخترع إسلام جديد..

وفي غيبة العقل برره الفقهاء..

في غيبة القرآن أصبح التراث هو الدين..

وفي غيبة العقل بارك الفقهاء هذا التراث..

في غيبة القرآن والعقل أصبحنا أسارى للحاكم ولفقه الماضي..

إن تحكيم القرآن والعقل في دائرة الأطروحة الشيعية قد منحها القدرة على تجديد محتوياتها ومواكبة الواقع والمتغيرات. بينما بقيت الأطروحة السنية جامدة منغلقة لرفضها الخضوع لحكم القرآن والعقل مما ولد قداسة غير مباشرة لجميع محتوياتها وفي مقدماتها كتب الأحاديث خاصة كتابا البخاري ومسلم اللذان حظيا بقداسة خاصة من دون الكتب الأخرى..

في الوسط السني يشهر سلاح التكفير في وجه أية محاولة للمساس بروايات البخاري ومسلم وقد حاول بعض عقلاء القوم نقد أحاديث سحر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الواردة في البخاري فلاقى من التهديد والوعيد وأحكام الزيغ والضلال ما دفع بهم إلى التراجع. وقد قامت جامعة الأزهر بفصل واحد من مدرسيها بسبب خوضه في بعض هذه الأحاديث وإنكاره لها..

ويرفض أهل السنة تحكيم القرآن في الأحاديث كما أشرنا سابقا. وهم بهذا يبتدعون قاعدة خطيرة تنزل الرواية منزلة القرآن. إذ يعتمدون الحديث ولو خالف القرآن ما دام صحيحا حسب قواعدهم. وكأنهم أيضا أنزلوا هذه القواعد منزلة النصوص. ولو كان للعقل دور عندهم لنبذت مثل هذه القواعد والآراء..

من هنا فقد تميز الطرح الشيعي بهذه القاعدة: قاعدة تحكيم القرآن والعقل واحترامه ومنحه الدور الشرعي الذي أوجبته نصوص القرآن. وسرني تطبيق هذه القاعدة على كتب الحديث وجميع ما ورد من أقوال وروايات عن الرسول أو أئمة آل البيت أو فقهاء الشيعة (٣).

ـ الإمام علي .

لفت نظري أثناء قراءتي لكتب التراث السني قول ابن حنبل: أن عليا كثير الأعداء ففتش أعداؤه له عيبا فلم يجدوا فعمدوا إلى رجل قد حاربه فأطروه كيادا منهم لعلي. فهذا القول يلخص حركة التاريخ. الخاص بالصراع بين آل البيت والقوى المتربصة بهم. وإن كان ابن حنبل قد خص بقوله معاوية، فالرجل من جهة أخرى أدان التاريخ السني بأكمله وإن كان لا يقصد ذلك. فتاريخ السنة إنما يقوم على أساس مباركة حكام بني أمية وبني العباس الذين قضوا على خط آل البيت وبطشوا بأئمته. وعلى أساس مباركة التراث الذي تولد من حالة التعايش بينهم وبين هؤلاء الحكام ذلك التراث الذي يقوم على الحط من قدر الإمام علي وتشويه آل البيت. إن ارتباط أهل السنة بخط الحكام فرض عليهم تبني وجهة معادية للإمام علي ولآل البيت وذلك هو الموقف الطبيعي لهم إذ أن هؤلاء الحكام هم أعداء علي وآل البيت..

فهم قد عملوا على رفع أبي بكر وعمر وعثمان عليه..

وهم قد أعلوا من مقام أبي سفيان وولده معاوية وساووه بالإمام علي..

وهم قد قاموا بتأويل النصوص الواردة في الإمام وآل البيت على غير معناها..

وهم قد برروا كل المواقف والحوادث التي وقعت بين الإمام والصحابة بما يخدم خط الحكام..

وهم قد عتموا على أئمة آل البيت من بعد الإمام علي وشوهوا شيعتهم..

ومثل هذه المواقف إنما تنم عن انحياز كامل لجانب أعداء الإمام وآل البيت..

لقد كنت أتأمل مثل هذه المواقف من القوم وأتساءل: ما سر هذه المواقف؟ وما هو الدافع من ورائها ولماذا يحظى الإمام بهذا التركيز من خصومه؟..

لم يكن كلام ابن حنبل سوى إجابة على طرف السؤال. أما الإجابة الكاملة التي لم يستطع النطق بها فهي أن القوم قد تآمروا على الإمام من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسام) وأن هذا التآمر قد اضطرهم إلى تحريف النصوص الواردة فيه وفي آل البيت وطمس معالمها بل واختراع نصوص

تناقضها..

إلا أن القوم على الرغم من موقفهم هذا نطق لسانهم بما يفيد الشبهة فيهم.
فقد لاحظت أنهم يطلقون لفظة " إمام " على علي وحده من دون بقية الصحابة.
ثم أنهم يدعون أن الإمام عليا قام بتحريق أناس قالوا بألوهيته. وكنت كلما مررت على هذين الأمرين تساءلت: لماذا يطلق القوم هذه اللفظة على الإمام خاصة.
ولماذا قال هؤلاء بألوهية الإمام دون غيره؟..

إن الإجابة على هذين السؤالين قد كلفتني الكثير من الوقت في البحث والتأمل حتى اهتديت أن هناك من النصوص ما يعطي للإمام علي خاصية ترفعه فوق الجميع. وأن هذه الخاصية كان يتنزل بها القرآن ويبشر بها الرسول. وهذه الخاصية هي الطهارة من الرجس لتسلم مهمة الإمامة من بعد الرسول. وهذا هو ما توارثه القوم عن علي وحجبته السياسة وما بقي منه سوى وصفهم له بالإمام.
وهذا هو ما دفع بالبعض للقول بألوهيته لما يرون من تحقق المعجزات على يديه.
إن سلمنا بصحة هذه الرواية (٤)..

إن القوم لم يخبرونا لماذا أله علي؟ فهم على الرغم من تبنيهم هذه الرواية لا يقصدون من ورائها سوى الطعن في شيعة الإمام ونبذ أي تصور يطرأ على ذهن المسلم حول خصوصيته وكأنهم يريدون أن يثبتوا من وراء هذه الرواية أن الإمام كان يبارك الخط السائد وأن من حاول الانشقاق عن هذا الخط ومنحه خصوصية تميزه عن القوم فقد أحرقه بيده. فدعوى ألوهية الإمام قضي عليها في مهدها على يده ولم تظهر بعدها أية دعاوى أخرى لتمييز الإمام أما الشيعة هؤلاء ففرقة مختلقة لا أصل لها ويقف من ورائها أعداء الإسلام (٥)..

ثم إن القوم بعد هذا لا يذكرون الإمام إلا ويقولون كرم الله وجهه. وعندما سألت عن معنى هذه الكلمة قالوا: إنه لم يسجد لصنم بينما جميع الصحابة قد وقعوا في هذا. فقلت في نفسي إن هذه الخاصية التي جاءت على لسان القوم إنما تؤكد مكانة الإمام وموقعه الشرعي كما أكدته رواية إدعاء ألوهيته ونعتهم له بالإمام..

لقد استفزتني كثيرا تلك المكانة المتواضعة جدا التي يضع أهل السنة فيها الإمام عليا

واستفزني تقديم عثمان عليه على الرغم من أفاعيله ومنكراته..

واستفزني مساواته بمعاوية الطليق الذي لا وزن له..

واستفزني ما يلصقون به من صغائر وموبقات..

وكان هذا كله مبررا للنفور من فقه القوم وأطروحتهم والبحث عن الحقيقة في دائرة الأطروحات الأخرى حتى اهتديت للأطروحة الشيعية ووجدت فيها ما أراح عقلي وطمأن نفسي بخصوص الإمام علي..

وجدت فيها مكانته وخصوصيته..

ووجدت فيها علمه الذي دثره القوم..

وجدت عليا الإمام المعصوم وهي الصفة التي تعكس خصوصيته وتميزه والتي فسرت على ضوئها جميع الأمور التي استشكلت علي في فقه القوم حول الموقف من الإمام..

فسرت لماذا يقولون عنه إمام..؟.

ولماذا يقولون كرم الله وجهه..؟.

ولماذا حاول تأليهه البعض..؟.

إن مكانة الإمام كانت ساطعة سطوع الشمس بحيث لم يتمكن القوم من حجبها عن أعين المسلمين بتأويلاتهم وتبريراتهم. وقد كنت واحدا من هؤلاء الذين سطعت عليهم شمس الحقيقة فأضاءت لي الطريق نحو الصراط المستقيم خط آل البيت محطما من طريقي جميع القواعد والأغلال التي صنعها القوم لتكبيل العقل وحجب الحقائق.

ـ الاجتهاد.ـــــــــــــــــــــــــــ

وما لفت نظري في الطرح الشيعي أيضا قضية فتح باب الاجتهاد الذي ظل مغلقا منذ قرون طويلة لدى الطرف الآخر ولا يزال..

وتميزت المؤسسة الدينية المعاصرة عند الشيعة بوجود عدد من المجتهدين البارزين الذين اجتهدوا في كثير من القضايا الملحة والعاجلة والتي لا زال يتخبط

فيها الطرف السني. وعلى رأس هذه القضايا قضية الربا والبنوك..

والاجتهاد عند الشيعة إنما هو محكوم بالنص لا يصطدم به ولا يخرج عليه. كما هو حال الطرف السني الذي تبنى قاعدة: لا اجتهاد مع النص. ثم ناقضها بتبنيه جميع اجتهادات عمر بن الخطاب على النصوص معتبرا هذا التبني نوعا من الخصوصية لعمر لكونه من الراشدين المهديين الذين نص عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) (٦)..

وأدلة الاستنباط عند الشيعة الكتاب والسنة (الصحيحة) والعقل. وهم بهذا يرفضون المصادر الأخرى التي أضافها أهل السنة كمصادر للتشريع مثل الاجماع والقياس والاستحسان وخلافه. هذه المصادر التي فتحت الأبواب لاختراع الكثير من الأحكام التي أسهمت وما زالت تسهم في تشويه صورة الإسلام..

وعوام الناس عند الشيعة عليهم أن يلتزموا بتقليد المجتهدين حسب قاعدة: تقليد الأعلم. فمن ثم لا تجد فردا شيعيا لا يقلد مرجعا من مراجع المجتهدين (٧)..

والتقليد يعني الإتباع في الأمور الفقهية ولا يعني الإتباع المطلق للمجتهد. كما يلزم المقلد بتسليم زكاة المال وخمسه إلى المرجع الذي يقلده..

والأمور الفقهية عند الشيعة إنما هي حكر على المجتهدين والفقهاء ولا يجوز لعوام الناس أن يخوضوا فيها. وقد شكلت هذه المسألة نوعا من النظام والانضباط في الوسط الشيعي وحالت دون ظهور الشطحات والبدع والتيارات الشاذة كما هو الحال عند الطرف السني الذي أصبح يعاني من ظاهرة تعدد الجماعات وكثرة التيارات وتصاعد الخلافات بسبب أنه لا توجد هناك ضوابط للتلقي والإتباع وبسبب فقدان ثقة المسلمين بفقهاء السنة وهو ما ليس موجودا عند الشيعة إذ المجتهد على الدوام محل ثقة الناس..

ومن الطريف أن هذا التقليد إنما هو مرتبط بحياة المجتهد فإذا مات فعلى المقلد أن ينتقل لتقليد الأعلم من بين المجتهدين الأحياء. وهذا يعني ارتباط المقلد بقضاياه المعاشة والمعاصرة ويجعل نظرته على الدوام نحو اليوم والغد. فتقليد الميت يعني التحجر على خط ثابت ويورث الانغلاق والتعصب وهو ما نراه واقعا عند

الطرف السني الذي لا زال يعيش على استفتاء أهل القبور ومن أهم نتائج فتح باب الاجتهاد عند الشيعة المرونة في مواجهة الواقع والارتباط به فلم أجد عند الشيعة تلك القضايا الهامشية والسطحية التي ينشغل بها الواقع السني مثل قضية اللحية والجلباب وغطاء الوجه بالنسبة للمرأة وتحريم الفن والثقافة وتجنب السياسة ومحاربة المسيحيين وغير ذلك من القضايا التي يعود سببها إلى الانعزال عن الواقع والكفر به..

ـ المؤسسة الدينية . ـــــــــــــــــــــــــــ

وما يميز المؤسسة الدينية عند الشيعة هو استقلالها عن الحكام وبعدها عن سيطرتهم مما أكسبها مواقف سياسية شجاعة أسهمت في إحداث تغييرات فعالة في مجتمعاتها..

وهذه الاستقلالية إنما يعود سببها إلى ارتباط المؤسسة الدينية بالشارع والجماهير التي تدين لها بالطاعة والولاء وتسلمها أموالها وتذعن لأحكامها..

أن رجال الدين عند الشيعة إنما يتقاضون أجورهم من الجماهير لا من الدولة. فمن ثم فإن المؤسسة الدينية إنما تعتمد على الجماهير وتعبر عنهم ولا تخشى الحاكم لكونه لا سلطان له عليها..

وعلى وجه المثال لا يمكن أن تجد مجتهدا يجلس في بيته أو مكتبه تعلوه صورة حاكم من الحكام فإن هذا الأمر لا يفعله حتى طالب من طلاب العلم الشيعة..

ومن الأمور التي تعكس ارتباط المؤسسة الدينية بالشارع عند الشيعة ثورة التبغ حين أصدر أحد المراجع فتوى بتحريم التبغ بهدف ضرب الشركات الأجنبية فانصاعت الجماهير لهذا الحكم وضربت المصالح الأجنبية بهذه الفتوى البسيطة (٨)..

هناك ثورة الدستور التي قادها عدد كبير من الفقهاء عام ١٩٠٦ م والتي انتهت بصدور دستور في إيران تقيد بالشريعة الإسلامية ومنح الفقهاء سلطة مراقبة القوانين (٩)..

وما نجاح الثورة الإسلامية في إيران إلا بهذه الخاصية. ولو لم يكن هناك

ارتباط بين الجماهير والفقهاء ما نجحت الثورة التي كانوا يقودونها ويحركونها بأنفسهم..

وهذا الارتباط الروحي بين الجماهير والمراجع إنما يعود سببه إلى قضية الإمامة. فالجماهير الشيعية تعتبر المرجع نائب الإمام الغائب الواجب الطاعة فمن ثم فإن طاعته واجبة..

وحال المؤسسة الدينية عند السنة على العكس من ذلك. فهي مؤسسة مرتبطة بالحكام وواقعة في دائرة نفوذهم ويتقاضى منهم الفقهاء أجورهم. فمن ثم فإن ولاءهم يتجه على الدوام نحو الحاكم وليس نحو الجماهير. وفتاواهم إنما تصدر لحساب الحاكم لا لحساب الجماهير.. وهذا ما دفع بالجماعات الإسلامية وتيارات الحركة الإسلامية المختلفة إلى نبذ المؤسسة الدينية باعتبارها مؤسسة حكومية في خدمة الحاكم لا في خدمة الإسلام..

من هنا فأن المؤسسة الدينية السنية تعيش مأزقا خطيرا يهدد وجودها ومستقبلها فهي قد فقدت ثقة الجماهير المسلمة والتيارات الإسلامية بها من جهة. ومن جهة أخرى فقدت القدرة على المبادرة وهي أسيرة الحكم وأسيرة فقه الماضي..

هوامش

---

(١) - أنظر كتابنا العقل المسلم بين أغلال السلف وأوهام الخلف.

(٢) - أنظر لنا شهداء الرأي في التاريخ الإسلامي.

(٣) - صدرت في الفترة الأخيرة كتب تلخص كتاب الكافي وهو كتاب الحديث الأول عند الشيعة مستبعدة منه الأحاديث الضعيفة والموضوعة. كما صدر كتاب يلخص من لا يحضره الفقيه وهو كتاب الحديث الثاني. ولفقهاء الشيعة الكثير من الكتب والبحوث حول هذا الأمر.

(٤) - روى البخاري في باب حكم المرتد والمرتدة: أتي علي بزنادقة فأحرقهم. فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تعذبوا بعذاب الله.

ولقتلتهم لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من بدل دينه فاقتلوه.. ورواه أحمد في مسنده (ج ١ / ٢١٧). ومن الواضح أن هذه الرواية تضرب عليا بابن عباس. وتشكك في فقه علي وعلمه. فهل يعقل أن يجهل علي حكما صريحا بالنهي وارد عن الرسول؟ وهل ابن عباس أفقه من علي؟.

(٥) - اخترع القوم شخصية تحت اسم " عبد الله بن سبأ " يهودي الأصل. وربطوها بالشيعة بهدف التشكيك في أطروحتهم وتاريخهم. أنظر كتب التاريخ. وكتاب عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى للسيد مرتضى العسكري. ولا يزال القوم يلصقون ابن سبأ بالشيعة حتى اليوم. أنظر كتاب السبئية والسبئيون.

(٦) - أنظر كتاب النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين ط بيروت.

(٧) لكل مرجع وكلاء ينوبون عنه في شتى البقاع التي يتواجد بها الشيعة. كما أن لكل مرجع رسالة عملية وهي عبارة عن كتاب يحوي كل ما يتعلق بالعبادات والمعاملات يتناول منها المقلد. وهذه الرسائل تكاد تكون متشابهة إلا في الأمور المحدثة المعاصرة والتي هي محل خلاف لاختلاف الاجتهادات حولها مثل قضية الربا والبنوك.

(٨) - لا يقول فقهاء الشيعة بحرمة الدخان. وهذه الفتوى كانت لها ظروفها الخاصة بها وقد صدرت عام ١٨٩١ م على لسان الميرزا الشيرازي وقد نصت على أن التدخين الآن حرام وبمثابة محاربة لإمام الزمان المهدي المنتظر.. وكان السبب في هذه الثورة هو منح شركة بريطانية حق استغلال التبغ الإيراني لمدة خمسين عاما.

(٩) - انتزع هذا الحق بعد مظاهرات ومصادمات وقتلى واضطر الشاه مظفر الدين تحت ضغط الفقهاء والجماهير التي تقف من ورائهم إلى إصدار فرمان في ١٥ / ٨ / ١٩٠٦ م بإعلان الدستور واعتبار المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة.

إشكاليتان في
الطرح الشيعي

العصمة والغيبة

عندما بدأت رحلة البحث في دائرة الشيعة اصطدمت بمسألتين حار عقلي فيهما لفترة طويلة من الزمن..

❋ المسألة الأولى هي العصمة..

❋ والثانية هي الغيبة..

لقد وجدت في الطرح الشيعي الكثير من الإجابات على إشكاليات كثيرة كانت تشغل ذهني إلا هاتين الإشكاليتين لم أجد فيما وقع في يدي من الكتب والمراجع ما يريح عقلي ويبدد شكي ويطمئن قلبي حولها..

وكانت حملات العداء والطعن والتشويه الموجهة إلى الشيعة من قبل التيارات الإسلامية تعتمد على هاتين المسألتين. كما كان المثقفون من العلمانيين واليساريين وغيرهما يعتبرون هاتين المسألتين بمثابة نقطة ضعف في الفكر الشيعي..

وقد كنت أواجه بأسئلة كثيرة حول تلكم المسألتين مما دفعني إلى ضرورة البحث والتأمل من أجل الوصول إلى نتيجة حاسمة حولهما..

وطوال فترة البحث والتأمل كانت تواجهني استنتاجات وخواطر تقرب بي من دائرة الحسم إلا أنه سرعان ما تظهر أفكار أخرى تبددها.

ـ مكمن الإشكالية . ـــــــــــــــــ

ولقد اكتشفت من خلال رحلة البحث والتأمل أن نظرتي لهاتين المسألتين كانت

قاصرة ومن زاوية معزولة. إذ كنت أنظر من دائرة نتناولهما كمسألتين مستقلتين معزولتين عن أطروحة آل البيت. وقد تساويت في هذه النظرة مع الآخرين من التيارات المناوئة التي تستفزها المسألتين وتريد أن تبحثهما مجردتين عن أطروحة وخط آل البيت. إن قضيتي العصمة والغيبة ترتبطان ارتباطا وثيقا بقضية الإمامة التي تعد الأصل الذي نبعت منه هاتان المسألتان. وبدون استيعاب قضية الإمامة لن يتحقق استيعابهما..

الإمامة هي الأصل والعصمة والغيبة فرعان من فروعها..

وفهم الإمامة يقود إلى فهم العصمة والغيبة..

والجهل بالإمامة سوف يقود إلى رفضهما..

من هنا عدت من جديد إلى بحث قضية الإمامة والتعمق فيها وبرزت أمامي نتيجة هامة وهي أن اعتبار الإمامة أصل من أصول الدين له ما يبرره شرعا وعقلا. وأنها المرتكز الأساسي الذي يرتكز عليه الإسلام وبدونها تضيع معالمه وتذهب هويته ويسهل تشويهه وتحريف نصوصه..

ولن يتم فهم قضية الإمامة إلا باعتبارها أصلا من أصول الدين. فإن النظر لها كقضية هامشية سوف لا ينبني عليه شئ وهو ما عليه القوم وما يتبنونه تجاه هذه القضية وهذا يقودنا إلى إلقاء الضوء على نظرة فقهاء القوم لهذه القضية..

يقول الشهرستاني: ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة (١)..

ومثل هذا التصريح من الشهرستاني إنما يؤكد خطورة قضية الإمامة وعظيم مكانتها وينفي محاولة تهميشها وتفريغها من مضمونها الحقيقي. إلا أن القوم خلطوا ما بين الإمامة والخلافة واعتبروا الإمامة مفهوما ينحصر في الحكم وهو ما قصده الشهرستاني..

ومن هنا فالإمامة عند القوم لا تخرج عن كونها منصبا اجتماعيا يهدف إلى تسييس الأمة ولا يشترط في صاحبها سوى القرشية والكفاءة. أما مسألة العدالة فهي ليست شرطا وعلى هذا الأساس يمكن أن يحكم الفاسق المسلمين وتجب طاعته

وإن ظلم وجلد الظهور واستولى على الأموال ولا يجوز الخروج عليه وترك طاعته (٢)..

هذه هي صورة الإمام عند القوم. وهي على ما تبدو صورة سيئة لا توقر هذا المنصب بل تضعه في دائرة الشك..

وإذا كانت الأمة سوف تعتمد على أئمة هذه شاكلتهم..

وإذا كان الإسلام سوف يكون رهينة هؤلاء الأئمة..

فإن هذا يعني ضياع الأمة وضياع الإسلام..

وهو ما حدث من بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مرورا بالخلفاء والأمويين والعباسيين وغيرهم من حكام المسلمين الذين اعتبروا في عرف القوم أئمة بشر بهم الرسول وأوجب على الأمة طاعتهم. وكانت النتيجة أن غاب الإسلام الرباني وحل محله إسلام آخر في واقع المسلمين. إن قضية الإمامة عند القوم قد أخضعت للسياسة وتم تأويل النصوص الواردة فيها بما يخدم الحكام ويضفي المشروعية عليهم..

يروي مسلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن هذا الأمر لا ينقي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة وفي رواية أخرى: لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة (٣)..

وفقهاء القوم يتخبطون في تعيين الأئمة الاثني عشر الذين قصدهم الرسول بالحديث إلا أنهم استقروا في النهاية على تعيينهم كما يلي:

الأول أبو بكر والثاني عمر والثالث عثمان. والرابع علي والخامس معاوية. والسادس يزيد ولده. ثم عبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز (٤)..

وحصر الأئمة الاثني عشر في حدود بني أمية إنما هو تفسير تفوح منه رائحة السياسة ووضع يزيد بن معاوية من بين هؤلاء الأئمة الذين بشر بهم الرسول وهو على ما هو عليه من الفساد والزندقة بشهادة القوم يعني أن قضية الإمامة قضية منهارة وخاوية في فقه القوم وما لها هوية ولا أساس..

ومثل هذا الأمر إنما يؤكد أن السياسة لعبت لعبتها في إطروحة القوم مما يدفع إلى الشك فيها ويفرض التساؤلات التالية:

لماذا لم يشترط القوم في الإمام العدالة..

ولماذا يرهنون الإسلام بأمثال هؤلاء الحكام؟..

ولماذا يربطون بين الخلافة والإمامة؟..

إن استقراء أحداث التاريخ يكشف لنا أن مواقف وممارسات الحكام الذين اعتبرهم فقهاء القوم أئمة المسلمين هي من السوء والانحطاط ما يؤدي إلى القناعة بأن الأئمة الذين بشر بهم الرسول وقصدهم بأحاديثه إنما هم فئة أخرى غير هؤلاء الحكام. وأن محاولة ربط هذه الروايات بالحكام وربط الخلافة بالإمامة والتغاضي عن شرط العدالة في الحاكم إنما كان الهدف منه إفساح الطريق لهؤلاء الحكام ليحلوا محل الأئمة الشرعيين..

ولو اشترط القوم العدالة وطبقوها تطبيقا صحيحا ما كان هناك من يستحق أن يحكم المسلمين من هؤلاء الحكام الذين جعلوهم أئمة. فجميع هؤلاء سيرتهم تنبئ بالفسق والظلم واغتصاب الحقوق وإراقة دماء المسلمين وتجاوز حدود الإسلام مما يخرجهم من دائرة العدالة..

وبالطبع أمثال هؤلاء لن تكون لديهم غيرة على الإسلام وإنما غيرتهم على دنياهم وعروشهم وهم قد تركوا الإسلام للفقهاء يعبثون به ولا يطلبونه إلا حين الشعور بالخطر..

وإذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس بعده أنبياء وهو خاتم الرسل فهذا يعني أن الحاجة ماسة من بعده لمن يقوم بأمر الإسلام والحفاظ عليه والتحدث بلسانه..

وليس من المعقول أن يكون الحكام هم حفظة هذا الدين من بعده وإنما لا بد وأن تكون هناك فئة منتقاة وقدوة حسنة تقوم بهذا الدور ولا يختلف عليها الناس..

وهنا يبرز الوجه الحقيقي للإمامة. أنها استمرار لدور الرسول. وما دامت استمرارا لدور الرسول فهذا يحتم أن يكون الإمام صاحب مؤهلات خاصة ومحل

حب وولاء وتعظيم المسلمين حتى ينقادوا له ويتلقوا منه الإسلام في ثقة وقبول..

لذا فإنني عندما اطلعت على طرح آل البيت وقارنت بين فكرة الإمامة عند القوم وبين فكرتها عند آل البيت تبين لي أن إمامة آل البيت هي الإمامة الشرعية التي عمل فقهاء القوم على التمويه عليها وتضليل المسلمين عنها. وأن أئمة آل البيت هم الذين قصدهم الرسول بحديثه السابق ذكره (٥)..

وأن هؤلاء الأئمة يملكون من الخصائص والصفات ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور. وأنه بمقارنة بسيطة بينهم وبين حكام زمانهم نرى كفتهم ترجح بلا منازع..

وليس من الممكن أن ترجح كفة أبي بكر ولا عمر ولا عثمان على الإمام علي وليس من الممكن أن يتساوى معاوية مع الإمام علي أو الإمام الحسن وليس من الممكن أن يتساوى يزيد بن معاوية مع الإمام الحسين ولا علي بن الحسين مع هشام بن عبد الملك..

ولا محمد الباقر..

ولا جعفر الصادق مع المنصور..

ولا موسى الكاظم مع هارون الرشيد..

ولا علي الرضا مع المأمون..

ولا محمد الجواد مع المعتصم..

ولا علي الهادي مع المعتز..

ولا الحسن العسكري مع المعتمد..

إننا لن نعرف قدر هؤلاء الأئمة ومكانتهم ووزنهم إلا بمعرفة الطرف الآخر وهم الحكام الذين حلوا محلهم..

عندما نعرف فسق هؤلاء نعرف تقوى وورع أئمة آل البيت..

وعندما نعرف حب هؤلاء للدنيا وتعلقهم بها نعرف مدى حب الأئمة للآخرة وتعلقهم بها..

عندما نعرف مدى انحراف هؤلاء عن الإسلام نعرف مدى تمسك الأئمة بالإسلام..

عندما نعرف صورة الإسلام التي يرفعها الحكام نعرف صورة الإسلام التي يرفعها الأئمة..

عندما نرى الحكام والفقهاء في وئام وسلام ونرى أئمة آل البيت في ضيق وبطش وإرهاب نعرف مدى الفرق بين الإسلام الذي يرفعه الحكام والإسلام الذي يرفعه أئمة آل البيت..

وأئمة هذا حالهم ويعيشون هذه المواجهة. ويلاقون مثل هذه الفتن لا بد وأن تكون فيهم صفة خاصة تحول بينهم وبين الاستسلام للمغريات والانحراف بالإسلام وفق هوى الحكام..

وهنا تبرز مسألة العصمة فهي مسألة ترتبط بعظيم الدور الذي سوف يلعبه الإمام في واقع الأمة من بعد الرسول..

ـ مسألة العصمة. ــــــــــــــــــــــــــ

إن النظرة السطحية لقضية الإمامة والتي ورثناها من فقهاء القوم تحول دون فهم مسألة العصمة. وإن التحرر من هذه النظرة سوف يؤدي إلى تقبل فكرتها.

فطالما لما ظل المسلم يعتقد أن الحكام هم الأئمة وأنه لا بأس بفسقهم وفجورهم وأن الرسول قد بشر بهم على هذا الحال فكيف له أن يتصور قضية العصمة؟..

وإذا كان الطرح المقصود بالإمامة مغيبا ولا يفقه المسلم عنه شيئا وليس أمامه سوى هذا النموذج الذي وضعه الفقهاء فكيف له أن يستوعب هذه المسألة؟..

فقه مسألة العصمة كان يسبقه فقه أطروحة القوم في الإمامة ثم فقه قضية الإمامة عند آل البيت وهو ما غاب عني في بداية بحثي حول هذه المسألة..

هذا النموذج السئ من الأئمة المطروح في كتب القوم يفرض الشك ويحتم وجود نموذج آخر. فليس من المعقول أن يرتهن مستقبل الإسلام بهذا النموذج الفاسد، والفقهاء عندما ربطوا قضية الإمامة بالحكام إنما وضعوا الأمة بين خيارين:

الأول: أن تتلقى الأمة دينها من الحكام..

والثاني: أن تتلقى دينها منهم..

وقد اختارت الأمة الخيار الثاني وإن كانت الحقيقة أنها ألزمت بالخيار الأول لكون الفقهاء قد جعلوا الدين في خدمة الحكام..

وكلا الطرفين: الحكام والفقهاء عجزا عن سد الفراغ الذي حدث بغياب الإمام الشرعي أو النموذج الحقيقي للإمامة..

ويتطلب فهم العصمة أيضا فقه دور الإمام الشرعي: هل هو الحكم والرياسة. أم التعبير عن الإسلام والتحدث باسمه. أم كلاهما معا؟..

لو كان هناك امتداد للرسالات الإلهية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكان من الممكن أن نتبنى الإجابة الأولى وهي أن دور الإمام هو حكم الأمة ورياستها. إلا أنه بما أن الرسول هو خاتم الرسل فلا بد أن يكون منصب الإمام له اعتبارات ودور آخر وهو سد الفراغ الذي حدث بغياب الرسول والحيلولة دون ارتداد الناس عن الإسلام..

إن الإمام هو النموذج النبوي الذي تستظل به الأمة من بعد الرسول. وما دام هو نموذجا نبويا فلا بد أن يكون فيه من خصال النبوة وخصائصها. أما إذا اعتبرنا الإمامة فكرة عائمة تنطبق على أي شخص كما يقول فقهاء القوم فإن هذا يعني الاستهانة بها وبدورها. وإذا كانت الإمامة تنطبق على الفاسق فإنها بهذا تكون قد أفرغت من دورها. إذ ما هو الدور الذي سوف يلعبه في واقع الأمة إمام فاسق؟.

فقهاء القوم بالإضافة إلى عزلهم آل البيت عن الإمامة وتنصيب الحكام أئمة مكانهم عزلوا الإمامة عن الإسلام أيضا. فأصبح الحكم في أيدي الساسة والدين في أيديهم وبالتالي شتت الإسلام بين هواهم وهوى الحكام والضحية هم المسلمون..

وما دام قد تبين أن دور الإمام هو حفظ الدين والتعبير عنه في الأساس من أجل إقامة الحجة على الناس بعد الرسول فهذا يتطلب توافر صفة العصمة في الإمام.

فلو تساوى مع بقية القوم لأمكن انحرافه عن الخط النبوي وبالتالي تفسد مهمته..

لو تساوى مع القوم لما كان هناك ما يميزه عن الآخرين وبالتالي يفقد خاصية القدوة. لو تساوى مع القوم لما كان الرسول هو خاتم الرسل. إذ أوجب الأمر وجود رسل آخرين بهم خصائص ومميزات ويتحلون بالعصمة حتى تقنع بهم الناس وتتلقى منهم.

إن أمة العرب كبقية الأمم لا بد وأن ينطبق عليها حال الأمم السابقة من الردة والانحراف بعد الرسل. ولما كان الله سبحانه يرسل في الأمم السابقة من يمنع هذه الردة ويحول دون هذا الانحراف. فلا بد أن يكون في أمة محمد بعد الرسول من يقوم بهذا الدور..

وهذه هي مهمة الإمام. وهذا هو دوره..

وما أن تبينت لي هذه الحقيقة حتى تضاءلت أمامي مسألة العصمة وانتقلت بالتالي من دائرة الاستبعاد والشك إلى دائرة القبول واليقين..

لقد اكتشفت أن العصمة كامنة في داخل كل فرد. فكل فرد منا معصوم. غير أن درجة العصمة تتفاوت من فرد لفرد على قدر ما يتحلى به من إيمان وتقوى وخلق..

فهذا الذي يتجه نحو المسجد ليؤدي الصلاة مارا بدور اللهو دون أن يدخلها ماضيا في طريقه نحو المسجد هو معصوم. ودرجة عصمته حالت بينه وبين دخول دور اللهو ودفعت به لدخول المسجد..

وهذا الذي يقف صامدا أمام المغريات فلا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر هو معصوم وهذه المرأة العفيفة التي أحصنت فرجها وصمدت أمام الفتن هي معصومة..

ومثل هذه النماذج كثير نراها ونعايشها دون أن ندرك أن مثل هذه المواقف إنما هي صورة من صور العصمة الحية المترجمة واقعيا أمام أعيننا..

ومن الممكن لأي فرد أن يرفع من درجة عصمته وذلك بزيادة قدر الالتزام

بتعاليم وأحكام الدين. فإذا أكثر من الصلوات وذكر الله فقد زاد من نسبة الوقف المستهلك في الخير والعمل الصالح وقلل من نسبة الوقت المستهلك في الشر والعمل الفاسد..

وإذا كان الفرد قد عصم يده من السرقة وكانت خطاه في سبيل الله ولسانه رطب بذكره فهو على درجة كبيرة من العصمة..

والأب إذا أحسن تأديب ولده فقد عصمه من الانحراف. وبقدر جرعة التربية والأدب التي يتلقاها الولد من والده بقدر عصمته..

فالأب المعصوم يعصم أبناءه..

والأب الفاسد يفسد أبناءه..

فإذا كان هذا هو حال الأفراد فكيف حال الأئمة؟..

لا شك أن درجة عصمة الإمام هي أعلى بكثير من درجة عصمة الأفراد العاديين وذلك لعدة اعتبارات هي: أن الإمام اختبار إلهي فالله اختار الرسول والرسول اختار الإمام..

- أن الإمام تربى في بيت النبوة..
- أن الإمام على درجة عالية من التقوى والعلم.

ـ الغيبة .

وحال مسألة الغيبة هو حال مسألة العصمة. لا يمكن فهمها بمعزل عن قضية الإمامة فالغيبة ترتبط بالإمام الثاني عشر المهدي المنتظر. والإيمان بالأئمة الإحدى عشر يفرض الإيمان به لكونه ابن الحادي عشر. فمن ثم فإن الذي يريد دراسة هذه المسألة بمعزل عن الإمامة لن يصل فيها لشئ وسوف يتهجنها عقله..

والدخول في حوار حول هذه المسألة مع من لا يعرف شيئا عن لإمامة أو هو منكر لها. هو الجهل بعينه والمرء الذي لا يأتي بشئ..

إن فهم الإمامة مقدمة أساسية لفهم العصمة والعصمة مقدمة لفهم الغيبة.

فهناك رابطة قوية بين المسألتين. فإن حاجة الإمام المهدي للعصمة حال ظهوره

هي أكبر بكثير من حاجة الأئمة الذين سبقوه وذلك يعود سببه إلى حجم المغريات والفتن التي سوف يلاقيها في عصره والتي تتضاءل أمامها الفتن والمغريات التي تعرض لها سابقوه. كما أن الدور الذي سوف يلعبه المهدي في واقع المسلمين هو دور عالمي شامل سوف ينتج عن القيام به مواجهة شاملة مع العالم بأكمله.

فمهمته مهمة دولية وليست إقليمية كحال من سبقوه..

ووجود هذا الإمام من خارج دائرة العصر إنما هو أمر له دلالة كبيرة وهامة ترتبط بطبيعة مهمته وعظيم دوره. فكونه من خارج العصر يمنحه قدرة على المواجهة والتحدي والثبات لا تتوفر في أهل العصر. فهو قادم من عالم آخر لا وجود فيه للمقاييس المادية وإنما مقاييسه إيمانية بحتة..

وهو خال من شوائب العصر ومتعلقاته ومؤثراته وهذا من شأنه أن يحول بينه وبين التأثر به والميل غليه..

ولو تصورنا أن الإمام المهدي يعيش بيننا ويعرفه الناس كما كانوا يعرفون الأئمة من قبله لكان أمر ظهوره معروف للجميع خاصة القوى المعادية المرتبطة به وبالتالي انتفى عنصر المفاجأة واندفعت هذه القوى لتسعى وراءه من أجل القضاء عليه.

وهذا يحول بينه وبين الإعداد والبناء للقضاء عليها..

لقد مهد الأئمة الإحدى عشر للمهدي وهذا التمهيد هو الرصيد المتبقي في واقع الأمة والمتمثل في منهج آل البيت. فمن ثم فإن غيبة الإمام المهدي لا تعني غيبة خط آل البيت فهو باق يهيئ الأمة لاستقباله والسير من وراءه..

أن الغيبة هي مدد معنوي للمؤمنين الملتزمين بخط آل البيت على مر الزمان.

ولو كان المهدي قد ظهر ومات كمن سبقوه لتوقف هذا المدد ولفقدت الأجيال اللاحقة تلك الدفعات الإيمانية التي تتولد من حالة الانتظار ليوم الخلاص من الظلم والفساد على يد الإمام المنتظر..

لو لم تكن هناك غيبة ولا انتظار لكان حال المؤمنين أشبه بالقطيع السائب الذي لا أمل له في تغيير أو إصلاح أو رقي. وهو ما يعيشه الطرف الآخر الذي فقد قيمة الانتظار وسقط ضحية الولاءات المتعددة للحكام تارة وللفقهاء تارة وللجماعات تارة أخرى إن اليأس من إمكانية التغيير والمواجهة مع القوى الطاغوتية المستكبرة في

الأرض وحالة الاحباط الدائمة التي تعيشها التيارات الإسلامية وفقدان الثقة في حكام المسلمين الذين هم في الحقيقة امتداد لهذه القوى. كل ذلك يدفعنا للإيمان بأن التغيير والمواجهة التي سوف تقضي على هذه القوى لن تتحق إلا بقيادة ربانية من خارج دائرة الزمان..

والأمم على مر التاريخ تحلم بالمنقذ الذي يأخذ بيدها ويخرجها من دائرة الظلم والقهر والاستعباد التي تعيشها إلى دائرة العدل والعزة والحرية. وإذا فقدت الأمة المعاصرة هذا الحلم. فماذا بقي لها؟..

إننا لن ندرك القيمة المعنوية للانتظار إلا بمعرفة حال فاقد هذه القيمة..

لن ندرك أهمية هذه القيمة إلا بمعرفة الخسارة التي تنتج عن إهمالها..

إن حركات التغيير لا يكتب لها النجاح إلا بعناصر معبأة وجاهزة فإذا ظهر المنقذ استعان بهذه العناصر للقيام بدوره وتنفيذ مهمة. أما إذا ظهر المنقذ ووجد الناس نياما فماذا سوف يفعل بهم؟ وكيف يتمكن من القيام بدوره؟..

وهذا هو الفرق بين الذين ينتظرون الإمام. وبين الذين لا ينتظرونه.

الذين ينتظرونه معبؤون جاهزون..

والذين لا ينتظرونه نيام مخدرون..

الذين ينتظرونه يتصدون للواقع الفاسد ويحاولون إصلاحه..

والذين لا ينتظرونه يعيشون خانعين مستسلمين..

وعلى أساس الموقف الأول قامت الثورة الإسلامية في إيران ونجحت..

وعلى أساس الموقف الثاني قويت شوكة الباطل وقتلت روح التغيير..

وما كان حكام الأمس واليوم ليبقوا جاثمين على صدور المسلمين لو كانت فكرة الانتظار حية نابضة في قلوب المسلمين..

ما كان لهؤلاء الحكام أن يبقوا لو لم يقم فقهاء القوم بتطبيق النصوص الواردة بخصوص الجماعة والأئمة على هؤلاء الحكام (٦)..

إن الإيمان بدور آل البيت ورسالتهم سوف يؤدي إلى الإيمان بمسألة الغيبة.

فإن المكانة الخاصة التي وضعهم فيها الشرع تفرض لهم استثناءات خاصة بهم.

فهم نموذج خاص وليس غريبا أن يدخر آخرهم لمهمة لا تقل شأنا عن مهمة الرسل..

وفيما يتعلق بقضية طول العمر فقد كانت من المشكلات التي أرقتني ولم أستطع حلها إلا عن طريق التأمل في آيات القرآن فقد وجدت في نصوص القرآن الكثير من الشواهد التي ذكرت طوال العمر..

هناك شاهد من قصة نوح (ع) الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما (٧)..

وهناك شاهد من قصة صاحب القرية الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه (٨)..

وهناك شاهد من قصة يأجوج ومأجوج الذين يعيشون في غيبة منذ أن بني عليهم السد (٩)..

وهناك شاهد من قصة أهل الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة عام ثم بعثوا من جديد (١٠)..

وهناك قوله تعالى ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾ (١١)..

وقد يقال أن طول عمر نوح ليس موضع استدلال لكونه رسولا والمهدي ليس رسولا. فلا يجوز قياس حال المهدي على حال نوح..

ومثل هذا التساؤل إنما هو ناتج من عدم معرفة دور آل البيت ومكانتهم وأنه من الممكن أن تجري على أحدهم سنة الأولين. إلا أن ما يجب أن نعرفه هنا هو أننا لا نقارن بين مكانة نوح ومكانة المهدي وإنما نستدل بالنص على إمكانية حدوث طول العمر وأنه أمر ليس بمستهجن. ثم إن الدور الذي سوف يلعبه المهدي في آخر الزمان هو أضخم من دور نوح وأكثر أهمية..

وقد يكون هناك تشابه بين دور نوح ودور المهدي وظروف دعوه كل منها.

فدعوة نوح كانت في بداية عهد البشر ودعوة المهدي سوف تكون في نهاية عهد البشر وكلاهما عاش قرونا..

وإن المتأمل في قصة صاحب القرية سوف يخرج بنتيجة وهي أن القصة لا

ترمي إلا لمدلول واحد وهو الإعجاز الإلهي في محيط الموت والبعث. فصاحب القرية تعجب من حال قرية خاوية على عروشها واستبعد أن يحييها الله من جديد فأماته الله مائة عام ليبين له أن الموت والإحياء شئ يسير عليه. وما يتأكد لنا هنا هو أن صاحب القرية هو المستفيد الأول والأخير من تلك الحادثة التي ليس لها من أبعاد اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية على مجتمعه. فقط أبعادها تنحصر في الجانب المعنوي العقائدي. ولأجل أن يثبت الله – سبحانه – قدرته فعل ما فعل بصاحب القرية. فإذا كان الله قد أمات رجلا مائة عام ثم بعثه دون أن يكون هناك هدف من بعثه سوى إثبات القدرة الإلهية. أليس من الأولى أن يطيل في عمر إمام يتوقف على دوره ومهمته مستقبل الإسلام والبشرية؟..

وإذا كان الله قد أبقى يأجوج ومأجوج على قيد الحياة طيلة هذه القرون من أجل أن يخرجوا عند قيام الساعة ليفسدوا في الأرض. أليس من الأولى أن يبقي على المهدي قرونا طويلة من أجل أن يصلح في الأرض؟..

وإذا كان الله قد أمات أهل الكهف ثلاثمائة عام ثم بعثهم ولم يكن هناك هدف من وراء ذلك سوى الإعجاز الإلهي فهؤلاء الفتية لم ينتج عن معجزتهم شئ للدعوة. لا هم أدخلوا مجتمعهم الأول في دين الله. ولا هم أنجزوا شيئا في المجتمع الذي بعثوا فيه فقد كان مجتمعا مؤمنا..

أليس من الأولى أن تتحقق المعجزة الإلهية مع المهدي الذي يعلن دين الله في الأرض؟..

وإذا كان الله قد أطال في عمر إبليس وهو رمز الشر – حتى قيام الساعة.. أليس من الأولى أن يطيل في عمر المهدي – رمز الخير – حتى قيام الساعة؟..

وقوله تعالى ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾ إنما له دلالة مستقبلية هامة. فهذا الحدث وهو ظهور الدين الحق – الإسلام – على الأديان كلها لم يحدث في أي فترة من فترات التاريخ الإسلامي لا في زمن الرسول ولا في أي زمن من بعده وهذا الأمر إن دل على شئ فإنما يدل على أن هناك قوة مدعومة من قبل الله سبحانه – سوف تظهر لتحقق ظهور الإسلام على أديان الأرض – أي نهاية جميع الأديان عدا الإسلام. وليس هناك من مرشح

لهذا الدور سوى المهدي..

أليست هذه الغاية السامية الرفيعة تبرر طول عمره؟ وعلى الرغم من هذه الاستنتاجات كان يطرأ على ذهني هذا السؤال: ما هو المبرر في أن يبقي الله المهدي حيا طيلة هذه القرون وهو قادر أن يبعث رجلا من أهل العصر ليقوم بمهمته ودوره ويعينه على إظهار دينه؟ أليس ذلك من الأولى؟..

إلا أن النظرة التأملية في واقع القوم ماضيا وحاضرا كانت تعطيني من الإشارات ما يكفي لرفض هذا السؤال من الأصل لا مجرد الإجابة عليه. فالقوم يعتنقون هذا التصور وهو أن المهدي سوف يكون من أهل العصر الذي سوف يظهر فيه أي أنه لم يولد بعد. ورغم ذلك لا توجد آثار أو انعكاسات لهذا التصور في واقعهم ومعنى ذلك أن الحكمة من وراء ظهوره منعدمة. فالقوم نيام وكأنهم لا يعلمون شيئا عن المهدي وكأنه لن يظهر. حتى أن بعضهم شكك في ظهوره وأنكر الروايات الواردة بشأنه. فقوم ينتظرون المهدي لا بد أن يستعدوا له وأن يبشروا بقدومه وأن يعلنوا الولاء له. إلا أن واقعهم يشهد بضد ذلك فهم نيام كما ذكرنا وبالإضافة إلى هذا يدعمون الحكام أعداء المهدي ويوالونهم وهم بهذا يسهمون في عرقلة مسيرته وضربها وقوم هذا حالهم في الماضي والحاضر لا يصح أن يخرج المهدي من بينهم إذ ليس في واقعهم ما يبرر إفراز مثل شخصية المهدي. وإذا ظهرت فسوف تحوم حولها الشكوك. ولعل هذا هو سر ظهور الكثير من الشخصيات التي تدعي أنها المهدي من بينهم والتي سرعان ما يكتشف كذبها. فلا هؤلاء هم قوم المهدي. ولا هذا هو واقع نشأته وظهوره؟..

وما دام المهدي لن يكون من هؤلاء..

وما دام هو سوف يقوم بهذا الدور الهام والمصيري المشابه لدور الرسول..

فلا بد أن يكون من فئة خاصة ومنتقاة..

ولا بد أن يكون من خارج دائرة العصر لأن الفئة الخاصة المنتقاة – آل البيت – كان هو آخر سلالتها فأبقاه الله حيا إلى زمان ظهوره من باب الإعجاز ومن باب الفتنة أيضا..

(١) - أنظر الملل والنحل (ج ١).

(٢) - راجع الروايات الواردة بحق الحكام في فصل الشك.

(٣) - مسلم (ج ٦) كتاب الإجارة. باب الناس تبع لقريش.

(٤) - شرح العقيدة الطحاوية ط القاهرة.

(٥) - آل البيت كما ورد في الروايات هم علي وفاطمة والحسن والحسين ثم التسعة من سلالة الحسين تتمة الاثني عشر.

(٦) - من هذه النصوص: من فارق الجماعة قيد شبر فمات. مات ميتة جاهلية. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. وربط الرسول بين الإمام والجاهلية كطرفي نقيض. فمن تبع الإمام يكون في دائرة الإسلام ومن لم يتبعه يكون في دائرة الجاهلية إنما يشير إلى أن الإمام هو الفيصل بين الإسلام والجاهلية وهو ما يؤكد أن هذه الروايات ليس المقصود بها الحكام كما يدعي القوم. فالحكام هم رأس الجاهلية وإنما المقصود بها هو الإمام الشرعي المعصوم من الأئمة الاثني عشر.

(٧) - سورة العنكبوت (آية ١٤).

(٨) - سورة البقرة (آية ٢٥٩).

(٩) - سورة الكهف (آية ٩٤ - ٩٨).

(١٠) - سورة الكهف (آية ٢٤).

(١١) - أنظر سورة التوبة والفتح والصف.

بعد التشيع

بدأت رحلتي مع الشيعة في مصر بمنتصف الثمانينات بعد خروجي من المعتقل. وكان الجو وقتها مشحونا بالعداء ضد الشيعة وإيران. فقد كانت الحرب على أشدها بين العراق وإيران وكانت مصر قد ألقت بثقلها من خلف العراق وأطلقت أجهزة إعلامها على إيران وأعطت الضوء الأخضر لصحافتها لتقول في الشيعة وإيران ما تشاء. ثم برز الدور الوهابي والعراقي على الساحة المصرية ذلك الدور الذي سخرت له الصحف ودور النشر والرموز الإسلامية والتيارات الإسلامية وحتى المنابر والأقلام اليسارية والعلمانية كل ذلك من أجل تشويه الشيعة وإيران والإمام الخميني على وجه الخصوص (١)..

كانت العيون مفتوحة علينا من كل جانب وفي كل مكان..

عيون الحكومة ورجال الأمن..

وعيون الصحافة والإعلام..

وعيون بعض الدول وبالخصوص العراق..

وعيون أمريكا وإسرائيل..

كل هؤلاء كانوا يتربصون بالشيعة في مصر. وقد انتهى هذا التربص إلى توجيه عدة ضربات متتالية لهذا التيار الناشئ من أجل إجهاضه والقضاء عليه (٢)..

ولقد استمرت حملة العداء ضد الشيعة وإيران طوال سنوات الحرب. حتى إذا

ما توقفت هذه الحرب توقفت معها هذه الحملة وكأنها كانت موقوتة بها. ومنذ ذلك الحين بدأت الضغوط الأمنية على الشيعة المصريين في التلاشي..

ـ الشخصية المصرية .

كان من الضروري وأنا أتحدث عن مرحلة ما بعد التشيع أن ألقي الضوء على الشخصية المصرية وتركيبتها لأن هذه الشخصية قد ألقت بظلالها على التشيع حتى يمكن القول أن هناك تشيعا مصريا له معالمه الخاصة والمرتبطة بالمجتمع المصري..

لقد عانيت من الشخصية المصرية على مستوى التشيع كما عانيت منها على مستوى التسنن فهذه الشخصية لم يغيرها التشيع كما لم يغيرها التسنن..

إن الشخصية المصرية إنما تتلقى العقائد الوافدة عليها لتصيغها على مزاجها ووفق تركيبتها لا أن تصيغ مزاجها ومقوماتها وفق هذه العقائد. وهذا بالطبع سوف يؤدي إلى صياغة النموذج الإسلامي وفق اعتبارات مصرية بحتة..

من هنا فمعلم اللين نراه منعكسا بوضوح على النموذج الإسلامي المصري سواء الذي تعرضه الحكومة أو الذي تعرضه التيارات الإسلامية. وإن كان قد طرأ على الواقع المصري الطرح الوهابي شديد التطرف واستطاع أن يتغلغل وسط التيارات الإسلامية إلا أن هذه التيارات قد تناولته تناولا آخر يتلاءم مع الشخصية المصرية. ولم تشذ عن هذه القاعدة سوى جماعات صغيرة تبنت الصدام مع الواقع معتمدة على هذا الطرح لكن هذه الجماعات قصيرة النفس إذ أن الواقع لا يمنحها الفرصة لتستمر في تبني هذا النهج الشاذ عن الطبيعة المصرية..

ومن معالم الشخصية المصرية السلفية أي الميل إلى الماضي وقد انعكس هذا المعلم بوضوح على الإسلام المصري حيث نرى نموذج التدين والالتزام يقوم على أساس تقمص شخصيات السلف والعيش بروحهم. ولكما كان الرمز الإسلامي أكثر التزاما بشخصية السلف كلما كان أكثر تأثيرا في المصريين. ولعل معلم الميل للماضي هذا ينبع من بغض الحاضر ومحاولة التهرب منه وربما هذا يفسر سر انتشار المخدرات بين صفوف العوام فهذه المخدرات من العوامل المساعدة على نسيان الواقع. ومع أن الخمر أقل تكلفة وأرخص سعرا من المخدرات إلا أنها أقل انتشارا بين العامة والسبب في ذلك يعود إلى التدين. فالمصريون لا يرون تناقضا

بين المخدرات والدين بينما يرون هذا التناقض بوضوح بينه وبين الخمر..

ومن معالم الشخصية المصرية: الانعزالية فالشعب المصري شعب انطوائي لا يحبذ الحركة والمغامرة بل يفضل البقاء في مكانه وإن كان هذا المكان لا يلائمه من حيث الرزق أو من حيث الراحة على التحرك بحثا عن مكان جديد صلاحيته بالنسبة له مسألة ظنية. وقد انعكس هذا المعلم على طموحات المصريين فجمدها أو قضى عليها. ويبدو هذا المعلم بوضوح في مسألة السفر لأجل العمل خارج مصر وليس هناك من غرض آخر يدفع بالمصري ليسافر خارج موطنه سوى غرض الرزق فإننا نجد المصري لا يسافر إلا بعقد عمل يضمن له وظيفة هناك خارج مصر فهو لا يفكر مطلقا في المغامرة بالخروج دون عقد عمل أو الذهاب إلى بلد غير مشهود له برخاء العيش ويضمن له رزقه كبلاد أفريقيا مثلا. والمصري يبقى خارج مصر في وظيفته التي جاء من أجلها لا يفكر في تغيير نمطية سعيه كأن يفتح مشروعا تجاريا أو يبحث له عن دور اقتصادي أكبر أو يسعى للاستيطان في موطنه الجديد. كل هذا لا يفكر فيه ولا يشغله. بل ما يشغله هو موطنه الأصلي وكيف يعود إليه حاملا المال الوفير ليبني بيتا في قريته أو يشتري شقة في مدينة ثم يعود إلى عمله الذي كان عليه إن كان موظفا أو مدرسا أو عاملا..

ومن أخطر معالم الشخصية المصرية التسيب. فثوابت هذه الشخصية مهزوزة تتقلب وفق المتغيرات والرياح الغالبة على الواقع. فشخصية الشعب المصري في العهد الملكي غير شخصيته في العهد الناصري غير شخصيته في عهد السادات غير شخصيته في العهد الحالي. إن الشعب المصري إنما هو شعب سريع الفساد وسريع الصلاح في آن واحد. فهو شعب يسهل إفساده ويسهل إصلاحه أيضا. ومن الممكن لحكومته أن تحوله إلى أفسد شعوب الأرض في فترة وجيزة. ومن الممكن أن تجعله أصلح شعوب الأرض في نفس الفترة أيضا..

ومن معالم الشخصية المصرية الاتكالية فطوال تاريخه يتكل على نهر النيل ويقبع إلى جواره فإذا أصابه القحط حلت المجاعة وضاعت البلاد وإن زاد ووفرت مياهه عم الرخاء والشبع. وكما اتكل المصريون على نهر النيل اتكلوا أيضا على حكوماتهم واعتقدوا أن بيدها كل شئ فمن ثم أسلموا لها أنفسهم في طواعية وانتظروا الخلاص على يديها. ولعل هذا يفسر سر تعلق المصريين بالعمل عند

الحكومة فهو مقدم عندهم على أي عمل آخر وإن كان أفضل وذلك لكون الحكومة مضمونة في نظرهم ورزقها ثابت أما الرزق من الأبواب الأخر فغير مضمون..

وتشكل عقيدة الرزق عند المصريين حجر الأساس في نظرتهم العامة للحياة. فكل شئ في نظرهم يخضع لهذه العقيدة حتى الدين. وكل شئ يتناقض مع الرزق مرفوض ومنبوذ. فإذا اختل رزق المصري حطم كل شئ. وفي سبيله يمكن أن يفعل أي شئ..

ومثل هذا الإعتقاد قضى على روح المغامرة في نفوس المصريين فالمغامرة من الممكن أن تتسبب في ضياع الرزق. من هنا فهم يرفضون فكرة الصدام مع الحكم من هذا المنطلق. والمعروف تاريخيا أن معظم قيادات مصر إن لم نقل جميعها هي قيادات وافدة عليها من الخارج والغريب أنها تتفاعل مع هذه القيادات ويتعايش معها المصريون وكأن حكم بلادهم أمر لا يعنيهم فما يعنيهم فقط هو الرزق وما دام هو في متسع فليست هناك مشاكل والسادات حين قرر الاعتراف بإسرائيل ربط خطوته هذه بقضية الرزق وأعلن أمام الشعب أن الصلح مع إسرائيل سوف يحقق الرخاء للبلاد وكان هذا هو الدافع الكبير الذي دفع بالمصريين إلى التحالف معه في هذا الموقف ومباركته..

وما يبرر مثل هذه العقيدة - عقيدة الرزق واللامبالاة بالحاكم - هو أن الشعب المصري خليط من أجناس مختلفة ليس لها جذور ضاربة في مصر. فمن ثم فإن عمق الولاء والانتماء لدى المصريين يعد ضعيفا إذا ما تم قياسهم بشعوب أخرى..

والتدين المصري عموما تدين قشري أجوف ومن هنا فإن من السهل التغرير بالمصريين برفع أي شعار إسلامي سواء كان ذلك من قبل الدولة أو كان من قبل التيارات الإسلامية..

وقد أسهمت حالة التدين الأجوف هذه في نمو ظاهرة الاتجار بالدين وشيوعها في المجتمع المصري. ومن خلالها تفرخت شركات توظيف الأموال التي تسترت بالإسلام وشركات السياحة التي تتاجر بفريضة الحج والعمرة..

وحتى الأحزاب السياسية لجأت إلى رفع الشعار الإسلامي من أجل استقطاب

الإسلاميين. وأصبحت تتاجر بفريضة الحج عن طريق بيع التأشيرات التي تحصل عليها من السعودية لأداء فريضة الحج إلى شركات السياحة التي تقوم بدورها ببيعها للجمهور بأثمان باهظة تحت ما يسمى بالحج السياحي (٣)..

ولقد انعكست كل هذه المعالم على حالة التدين عند المصريين لتحوله إلى تدين مزاجي متقلب وفق الظروف والمتغيرات وأحيانا وفق سياسة الدولة..

وعلى الرغم مما يشاع عن مصر أنها أكثر شعوب العالم الإسلامي تدينا فإننا لا نجد على ساحة الواقع ما يؤكد هذا الادعاء. فنسبة ضئيلة فقط هي التي تمارس الصلاة اليومية بينما الغالبية العظمى منهم تداوم على صلاة الجمعة فقط. وجميعهم يحلم بأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن تحقق هذا الحلم لديهم لا يغير من سلوكياتهم شيئا. فالمعوج يظل معوجا. وتارك الصلاة يظل تاركها..

ويتكل المصريون على فريضة الحج وفريضة الصوم التي لا يتخلف عنها أحد اتكالا وذلك لاعتقادهم أن الحج والصوم يجب ما قبله من الآثام والموبقات فمن ثم هم يعتبرون صوم رمضان فرصة للتطهير من أوزار العام الماضي فيقبلون على الصلاة فيه ويكثرون من تلاوة القرآن ثم إذا انتهى الشهر عادوا إلى ما كانوا عليه. ويعتقد الحاج أيضا أنه بحجه قد غسل نفسه وطهرها وعاد كيوم ولدته أمه..

وحتى حب آل البيت الكامن في نفوس المصريين كان بتأثير الحكومات وهو وليد العهد الفاطمي على وجه الخصوص. وهو حب سطحي لا ينم عن ولاء حقيقي لآل البيت. ومثل هذا الحب هو الذي أدى لانتشار الطرق الصوفية بكثرة بين صفوف المصريين لتصبح التيار الإسلامي الرئيسي في مصر (٤)..

وعلى مستوى التشيع فإن المصريين حملوا رواسبهم معهم وألقوا بها عليه بل حاولوا أن يصبغوه بصبغتهم. فهم يمارسون التشيع بأسلوب العصر الأموي من المبالغة في التقية إلى الحد الذي يتنافى مع الواقع. وهم قد تأثروا تأثيرا بالغا بالثورة الإسلامية في إيران ليس بسبب أنهم يؤمنون بنهج التغيير الثوري ولكن لأنهم يحلمون بتحقيق مثل هذه الثورة في واقعهم. وحتى هذا الحلم حاسبتهم عليه الدولة (٥)..

ولقد كان لفكرة الإمام الغائب وقع كبير في نفوس المصريين إذ أن هذه الفكرة تنسجم مع ميولهم وتركيبتهم وحلمهم بالتغيير على يد غيرهم. ثم أن المهدي سوف يكون قوة خارقة مؤيدة من الله سبحانه وهذا يعني أن انتصاره أمر محتوم. فمعلم اللين والاتكالية والسلفية وجدوا له ما يبرره في التشيع..

ومثلما كان هناك اتجار بالدين على مستوى السنة. برز الاتجار بالدين على مستوى الشيعة أيضا. وقد فوجئت ببعض العناصر المنتسبة للتشيع تستثمر هذا التشيع في تحقيق مكاسب خاصة لنفسها. ومنذ التزامي بخط آل البيت أردت أن أكفر عن هذه السنوات. فمن ثم فقد آليت على نفسي ألا أترك أحدا ممن كنت أعرفه في الوسط الإسلامي من قبل إلا وأفقده الثقة في الأطروحة السنية..

من هنا فقد تجنبني القوم والتزموا تجاهي بسياسة القذف بالطوب من بعيد دون أن يحاولوا الاقتراب مني. قلة قليلة فقط التي تخلت عن هذه السياسة واحتكت بي ولما تكشفت أمامها الحقائق تبنت خط آل البيت..

وكنت قد استطعت بعون الله أن استقطب الكثير من العناصر لصف التشيع من مختلف التيارات الإسلامية العاملة في الوسط الإسلامي بمصر..

من تيار التكفير..

ومن تيار الجهاد..

ومن التيار السلفي..

ومن تيار الأخوان..

وكما كنت في الوسط السني ألعب دورا قياديا. فرض علي في الوسط الشيعي أن ألعب نفس الدور حيث أن حركة التشيع في بداية الثمانينات كانت لا تزال في طور النمو وفي حاجة إلى إبراز معالمها وشخصيتها..

كانت حركة التشيع في حاجة إلى الدعم الإعلامي لصد الحملات الضارية التي تشن عليها من جهة. وتوعية المؤمنين وتثبيتهم من جهة أخرى..

وبحكم خبرتي في الحقل الاعلامي حملت على كاهلي هذا الدور واستطعنا بفضل الله أن نؤسس دار نشر صغيرة تحت اسم البداية وكان هذا في أواخر

عام ١٩٨٦ م وقد قامت هذه الدار على كاهلي بدعم من بعض الأخوة من الشيعة العرب الذين كانوا يقيمون بمصر وكان ظهور هذه الدار في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٧، بمثابة مفاجأة كبيرة للشيعة وخصومهم على السواء..

ولقد حوربت هذه الدار من التيار السلفي الوهابي الذي أصدر فيها عدة منشورات تحذيرية للإسلاميين من التعامل معها وضرورة مقاطعتها..

ومن أشهر هذه المنشورات كتيب صدر بعنوان: بداية الشر ونهج البربر.

ويحوي داخله هجوما شخصيا علي ونقدا لاذعا ومغاليا لبعض مؤلفاتي التي كانت قد صدرت قبل تلك الفترة. ويحاول المنشور إقناع المسلمين أن إيران تقف وراء دار البداية مبرهنا على ذلك بأدلة واهية ساذجة..

ومثل هذه الحرب التي شنت على دار البداية من قبل التيار السلفي الوهابي إنما كانت علامة على نجاحنا. إلا أن الشئ الغريب والغير مبرر هو تلك الحرب التي شنت علينا من قبل بعض الشيعة الذين اعتبروا هذا النشاط الاعلامي بمثابة تهديد لحركة التشيع من شأنه أن يجعل القوى المتربصة بنا تعجل بضربنا وتجهض الدعوة في مهدها..

ولقد كنت أعتقد من منظور إعلامي أن دعوتنا في حاجة ماسة إلى أن تظل بارزة معلنة وذلك لعدة أسباب:

الأول: أنه ليس هناك مبرر للتحفي وانتظار انفراج الأوضاع فهذا معناه أن تظل حركة التشيع مرهونة بأمر ظني..

الثاني: أن حركتنا لا تتبنى تصورات معادية للواقع أو الحكم وأنه لا سبيل لإثبات صدق النوايا إلا بالعمل الاعلامي الذي هو في الأصل عمل علني..

الثالث: أن الصدع الفكري في مواجهة الواقع لا يصح تأجيله وربطه بمرحلية التحرك إذ أن التصورات لا تخضع للمرحلية..

الرابع: أن مستقبل الدعوة لا يجوز ارتهانه بفئة أو جماعة معينة. ومستقبل حركة التشيع في مصر ليس مرهونا بنا حتى نبالغ في التقية والمحافظة على السرية..

الخامس: أن المكاسب التي تحققها الدعوات على مر الزمان إنما تكون عن

طريق العلن ومواجهة الواقع لا الانعزال عنه..

وهذا ما حدث بالفعل إذ أن المواجهة مع الواقع والحملة الإعلامية التي قمنا بها قد دفعت بخصومنا من التيارات الإسلامية المناهضة إلى إعلان الحرب علينا وهذا بدوره قد خلق رد فعل إعلامي كبير حقق دعاية للتشيع واسعة لم نكن لنستطيع القيام بها..

وكان كم الكتب والمقالات والخطب المنبرية الموجهة ضد الشيعة هي أكبر بكثير من حجمهم ووزنهم. ثم تحركت الحكومة فوجهت ضربتها للشيعة في عامين متتاليين (١٩٨٨ - ١٩٨٩) وتم حل دار البداية والقبض علينا واتهامنا بالعمل على قلب نظام الحكم لحساب إيران. إلا أن هذه القضية لم تخرج عن كونها قضية ورقية استهلاكية وسرعان ما أخلي سبيلنا بعد أن قدم لنا الخصوم أكبر هدية وهي شغل الرأي العام بحركتنا وتوسيع دائرة الدعاية لدعوتنا وهكذا خرجنا من هذه المحنة أكثر صلابة وأكبر رصيدا ولم نكن لنستطيع تحقيق ذلك لو لم ندفع هذا الثمن. وهذه هي سنة الدعوات..

إن الحقوق لا تستجدى والحريات لا تمنح وإنما تنتزع انتزاعا. وهذا ما آمنت به من خلال تجاربي وما يجب أن يؤمن به كل عاقل مجرب. وحتى نتمكن من انتزاع حقنا في الوجود على الساحة وحريتنا في التعبير عن عقيدتنا لا بد أن نظل ظاهرين نقارع الخصوم حتى يتم تحطيم حاجز الشك ونحقق الثقة..

ولقد كانت أهم نتائج المواجهة الإعلامية مع الواقع هي ما يلي:

- تبديد الشبهات التي تحوم من حول الشيعة لدى الكثير من قطاعات المثقفين في مصر من التيارات الإسلامية وغيرها..
- توسيع رقعة التعاطف مع خط آل البيت..
- توسيع رقعة انتشار الكتاب الشيعي..
- استقطاب الكثير من العناصر الصفوف الشيعة..
- تغير نظرة الدولة وجهاز الأمن تجاه حركة الشيعة..

ومثل هذه النتائج لم تكن لتتحقق لو كنا ملتزمين بالسرية التي سوف تجعلنا

نعيش في دائرة الشك وفقدان الثقة..

وبعد توقف دار البداية قمنا بتأسيس دار الهدف وهي لا تزال مستمرة حتى اليوم وتشارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب كل عام. وتعد الواجهة الإعلامية للشيعة في مصر..

ويؤسفني أن أذكر أن بعض الشيعة قد تآمروا على هذه الدار وتسببوا في تجميد نشاطها فترة من الزمن في الوقت الذي لم تتعرض فيه الحكومة لهذه الدار منذ قيامها عام ١٩٨٩ م وحتى اليوم..

ونظرا لكوني أقف في الواجهة أمام الحكومة وأمام التيارات الإسلامية والتيارات السياسية الأخرى. فقد وضعني جهاز الأمن تحت الرصد الدائم واعتبرني الرجل الأول عند الشيعة بل بالغ في الأمر واعتبرني رجل إيران في مصر وأنني أعمل لحساب المخابرات الإيرانية..

ومثل هذا الموقف الذي تبناه جهاز الأمن تجاهي لم يأت من فراغ وإنما قام على أساس تاريخي السابق في دائرة الحركة الإسلامية وارتباطي بالتيارات الإسلامية ونشاطي الواسع في فترة السبعينات والثمانينات بالإضافة إلى فترة اعتقالي التي استمرت أكثر من ثلاث سنوات..

وفقد استطعت بعون الله سبحانه أن أدخل في حوارات مع جهاز الأمن من أجل كسر حاجز الشك وتوضيح الرؤيا وإزالة الشبهات خاصة شبهة العلاقة بإيران. فقد كانت هناك عقيدة متوطنة لدى جهاز الأمن أن إيران تقف وراء الشيعة في مصر وقد برهنا على أن هذا الأمر لا أساس له من الصحة (٦)..

ومثلما دخلنا في حوارات مع جهاز الأمن دخلنا أيضا في حوارات مع التيارات السياسية مثل التيار الماركسي والتيار القومي والتيار العلماني والناصري. وقد اكتشفت هذه التيارات أن الطرح الشيعي أكثر تجاوبا مع الواقع وأكثر مرونة وفاعلية في مواجهة الأحداث اكتشفت أن الطرح الشيعي إنما يعرض إسلاما آخر غير ذاك الإسلام المخيف الذي تعرضه الجماعات والذي تتخذ منه موقفا معاديا..

وقد نتج عن هذه الحوارات أن تبنت هذه التيارات موقفا متعاطفا مع الشيعة وأقبلت على الكتب الشيعية وطالبتنا بمشاركتها الندوات واللقاءات الفكرية التي

تقيمها..

ولم تكن تلك الحوارات والمواجهات الفكرية مع التيارات الأخرى تنحصر في دائرة التعريف بالشيعة وتبديد الشبهات من حول أطروحتها وإنما تجاوز الحوار هذا الحد ليشمل الجمهورية الإسلامية ووقعها وسياستها..

إن الحديث عن الجمهورية إنما يفرض نفسه على الواقع المصري اليوم وفي الأوساط الثقافية خاصة. حتى أنه أصبح الحديث عن الشيعة يعني الحديث عن إيران. والحديث عن إيران يعني الحديث عن الشيعة..

وفي ذهن المثقف المصري اليوم قناعة ثابتة بوجود رابطة قوية ومصيرية بين إيران والشيعة ليس على مستوى مصر وحدها وإنما على مستوى العالم بأكمله..

ومن هنا فقد كان الحديث عن إيران يفرض نفسه على الحوارات المتعلقة بالشيعة. وقد أسهمنا بفضل الله في تبديد كثير من الشبهات والغموض الذي كان يكتنف تصور مثقفي مصر تجاه إيران (٧)..

وأذكر أن أحد المثقفين قال لي: يجب أن تعذرنا في تبني هذه النظرة القاتمة تجاه إيران فنحن لا نجد بين أيدينا من المصادر ما يعيننا على فهم الواقع الإيراني مع الوضع في الاعتبار التعتيم الاعلامي المستمر حول هذا الواقع..

والحق أن دعوة التشيع في مصر تسير ببركة آل البيت فليس لديها من الإمكانيات ما يعينها على أداء هذا الدور الاعلامي الذي يتسع يوما بعد يوم في الواقع المصري..

ففضلا عن كونها لا تنطلق من قاعدة ثابتة وقيادة موحدة هي تفتقد الكتاب الشيعي الذي يزداد الطلب عليه والذي يعد مصدره الأساس معرض الكتاب الذي يقام سنويا فهو المتنفس الوحيد للشيعة.

ـ المجلس الشيعي . ـــــــــــــــــــــــــ

ونظرا لاتساع رقعة الدعوة وشيوعها في محافظات مصر أصبحت الحاجة ماسة لترتيب البيت الشيعي من الداخل..

من هنا برزت فكرة المجلس الشيعي التي طرحناها ولا قت قبول وموافقة

الجميع وقد اتخذنا الخطوات اللازمة من أجل الدخول في خطوات عملية لإعلانه (٨)..

وسيرا مع واقع الدعوة وظروفها وأيضا ظروف وملابسات الواقع المصري والحساسية الأمنية لدى الحكومة تجاه أي نشاط إسلامي خاصة النشاط الشيعي. فقد آثرنا أن يكون إطار هذا المجلس وتصوره ونشاطه يقوم على أساس اجتماعي بحت فمن ثم أعلنا أهداف المجلس فيما يلي:

- يضم المجلس كافة المؤمنين في جميع محافظات مصر ويكون المعبر عنهم والناطق بلسانهم والممثل الرسمي لهم أمام كافة الجهات الرسمية وغير الرسمية..
- تحقيق التكافل الاجتماعي والترابط بين المؤمنين..
- إقامة المساجد ودور المناسبات..
- إصدار صحيفة تنطق بلسان المجلس..
- إقامة مكتبات عامة للاطلاع..
- إحياء المناسبات الإسلامية..
- تأسيس صندوق الخمس والزكاة..
- إصدار الكتب والدراسات التي تخدم خط آل البيت وتعرف الرأي العام بهم..
- القيام برحلات الحج وزيارة الأماكن المقدسة..

هذه هي الأهداف التي قام على أساسها المجلس والتي تعكس كونه هيئة اجتماعية لا تتبنى أية توجهات سياسية. وهي الصورة الأكثر ملاءمة لواقع الشيعة في مصر اليوم..

وأكرر أسفي أن هناك بعض الشيعة يقفون من فكرة المجلس موقفا سلبيا ومثل هذا الموقف إنما ينبع من تركيبة الشخصية المصرية التي تميل إلى اللين وتخشى المواجهة المباشرة مع الواقع..

كما أن حالة الاحباط التي تعد إحدى معالم الشخصية المصرية قد دفعت ببعض

الشيعة إلى التقوقع والانعزال عن الواقع وبالتالي رفض فكرة المجلس..

وفي الوسط الشيعي المصري اليوم الكثير من الأثرياء الذين من الممكن أن يقوموا بدور فاعل لخدمة الدعوة ودفعها إلى الأمام إلا أنهم آثروا السلامة وكأن الأمر لا يعنيهم وذلك يعود إلى حسابات خاصة بهم وهي حسابات في حقيقتها تنبع من تركيبة الشخصية المصرية..

وليس من المعقول أن أكلف نفسي كل هذا العناء في الوسط السني ثم أعيش تجربة الإنتقال الطويلة من السنة إلى الشيعة ثم بعد ذلك أقف في طابور المنتظرين لأتبنى دور المتفرج..

من هنا بدأت في سلوك سبيل التأليف والنشر والدعاية وسبيل الحركة أيضا من أجل خدمة دعوة آل البيت ودعمها وتذليل العوائق من طريقها وبعث الهمة في نفوس المؤمنين بهذه الدعوة ليقوموا بدورهم تجاهها (٩)..

هوامش

(١) – أنظر هذا الأمر بتوسع في كتبنا التالية: الحركة الإسلامية في مصر والشيعة في مصر ومصر وإيران صراع الأمن والسياسة.

(٢) – وجهت للشيعة عدة ضربات متتالية عام (١٩٨٧ – ١٩٨٨ – ١٩٨٩). أنظر المراجع السابقة.

(٣) – تحصل الأحزاب والهيئات الإسلامية في مصر على عدد كبير من تأشيرات الحج والعمرة من السفارة السعودية كل عام. وقد وصل سعر الحج السياحي اليوم إلى أكثر من خمسة آلاف جنيه.

(٤) – في مصر أكثر من سبعين طريقة صوفية معروفة غير الطرق غير المعروفة. وبعض هذه الطرق له ميول شيعية. وتحتوي هذه الطرق أكثر من عشرة ملايين فردا.

(٥) كان من التهم التي وجهت لنا حين القبض علينا فيما سمي بالتنظيم الشيعي الخميني. العمل على قلب نظام الحكم على نهج الثورة الإسلامية.

(٦) – كان جهاز الأمن يعتقد أن إيران تقف وراء الجماعات الإسلامية أيضا. وقد برهنت الأحداث والوقائع على عدم صحة ذلك التصور. أنظر كتابنا مصر وإيران.

(٧) – كانت رحلاتي للخارج خاصة لإيران واحتكاكي بقطاعات الشيعة في خارج مصر قد زاد من رصيد الوعي لدي وأعانني على نقل الصورة الحقيقية لواقع الجمهورية الإسلامية إلى مثقفي مصر.

(٨) – نشرت مجلة روز اليوسف خبر تأسيس المجلس الشيعي المصري. ويذكر أن مجلة روز اليوسف قد

نشرت عدة موضوعات عن الشيعة في مصر من قبل. وكان هذا عن طريق الاتصال بنا.

(٩) - كان قد صدر لي أثناء أزمة الخليج كتاب حركة آل البيت وصور في مصر. ثم صدر لي بعدها كتاب الشيعة في مصر. وكتاب عقائد السنة وعقائد الشيعة وهو دراسة مقارنة بالإضافة إلى مؤلفات أخرى معلن عنها في آخر هذا الكتاب.

القرآن

لو لا إحراق المصاحف من قبل عثمان ما قامت لبني أمية قائمة

أوقفتني الكثير من النصوص القرآنية وحار فيها عقلي ولم أجد بين صفحات كتب التفسير ما يقضي على هذه الحيرة ويحقق لي الطمأنينة وعلى رأس هذه النصوص التي استوقفتني قوله تعالى ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ إذ وجدت هذا النص قد حشر وسط آيات خاصة بنساء النبي في سورة الأحزاب وهذا يعني التمويه على حقيقة أهل البيت ويدعم موقف أهل السنة الذي ينص على أن نساء النبي من أهل البيت.. وهو من جهة أخرى يثير الشك إذ أن القرآن قد ذكر بعض نساء النبي بالذم في سورة التحريم وهذا يشير إلى أنهن لسن المقصودات بآية التطهير. وأن الآية تقصد فئة أخرى.

من هنا بدأت رحلة الشك في ترتيب القرآن وتدوينه والتي قام بها بعض الصحابة بهدف التمويه على مكانة آل البيت (ع) ودورهم. وتبنى أهل السنة من بعد هذا القرآن على هذا النحو مما أتاح الفرصة للرجال ليفسروا آيات القرآن على هواهم خاصة تلك التي تتعلق بآل البيت (ع)..

من هنا كانت قراءاتي في تاريخ القرآن أحد العوامل التي أدت بي إلى الشك في الأطروحة السنية. فمن ثم أنا أقدم هنا خلاصة بحثي حول هذا الأمر..

ـ جمع القرآن .

كانت هناك عدة مصاحف منتشرة بين الصحابة منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحتى عهد عثمان. ولم يكن أحد من الصحابة أو الخليفة الأول

والثاني قد أبدى أية اعتراضات على هذه المصاحف حتى جاء عثمان فأصدر أمره بحرق هذه المصاحف وإلزام الأمة بمصحفه..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أقدم عثمان على هذا العمل؟..

هل فعل هذا حسما للخلاف وحفاظا على وحدة الأمة؟..

لو سلمنا بهذا فإن هذا يعني أن الخلاف كان واقعا من قبل عثمان. وأن أبا بكر أو عمر لم يتحرك أي منهما لحسمه. إلا أن الأمر على ما يبدو يشير إلى دلالات أخرى. والمشهور عند القوم أن عثمان جمع المسلمين على قراءة واحدة للقرآن ومنع القراءات الأخرى..

لكن هذا التفسير لا يحسم القضية إذ أن القراءات السبع للقرآن وردت فيها أحاديث صحيحة عند القوم والجميع يلتزم بهذه القراءات إلى يومنا هذا. فإذا كان عثمان قد منع القراءات الأخرى وألزم الأمة بقراءة واحدة. فلماذا بقيت هذه القراءات حتى اليوم؟ وألا يعتبر عمله هذا مخالفا لقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه (١)..

وإذا كان الهدف من القراءات هو التيسير على الأمة. فما الذي يدعو إلى الخلاف في ذلك حتى يضطر عثمان إلى إلغاء القراءات؟..

إلا أن هناك شبهة تثار حول مسألة القراءات وهي إذا كان الرسول قد أباح قراءة القرآن على أحرف مختلفة فإن هذا يبرر عدم وقوع الخلاف وما دام قد وقع الخلاف فإن هذا يؤكد على أن مسألة القراءات مسألة اجتهادية لا نص فيها..

والحق أن هناك طعنا واضحا في الأحاديث الواردة بشأن القراءات من حيث السند ومن حيث المتن. وهناك خلاف واضح بين أهل التفسير حول القراءات: هل هي توقيفية؟ أم اختيارية؟ وهذا الخلاف يدل على عدم وجود نص فيها (٢)..

ومن هنا يمكن القول أن مسألة القراءات لم تكن هي الدافع الذي أدى بعثمان إلى حرق المصاحف وإنما هناك سبب آخر.

لقد دفعت بي هذه الشبهة إلى العودة للوراء لدراسة عملية جمع القرآن في عهد أبي بكر فقد دلت الروايات أن عمر هو الذي دفع بأبي بكر إلى جمع القرآن..

يروي البخاري أن عمر قال لأبي بكر: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن. وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن. وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر (٣)..

وهذه الرواية نخرج منها بالملاحظات التالية:

- أن الرسول ترك الأمة والقرآن في صدور الرجال..
- أن القرآن مهدد بالضياع بسبب معركة اليمامة..
- أن أبا بكر لم يكن يعنيه هذا الأمر..
- أن عمر ذكره بأهميته وضرورته..
- أن أبا بكر احتج بأن الرسول لم يفعل ذلك..
- أن عمر أكثر من الالحاح عليه في هذا الأمر..

ومثل هذه الملاحظات إنما تؤكد شيئا واحدا هو أن الرسول قصر في مهمته وترك القرآن مشتتا بين صدور الرجال مما يهدد بضياعه. وهذا يعني اتهام الرسول بالإهمال..

لكن تقصي الروايات الواردة على لسان الرسول عن القرآن تكشف لنا أن القرآن كان موجودا ومجموعا في عهده وأن هناك عددا من مشاهير الصحابة كانوا من كتاب الوحي منهم الإمام علي وأن هناك الكثير من النصوص التي جاءت عن الرسول تحض الأمة على ضرورة التمسك بالقرآن والإكثار من قراءته والعناية به (٤)..

وإذا ما صح هذا التفسير فإن هذا يعني نفي شبهة التقصير والاهمال عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وظهور شبهة أخرى تتعلق بموقف أبي بكر وعمر من القرآن. فإذا كان القرآن مجموعا وموجودا فلماذا أصر عمر على جمعه متحججا بوقعة اليمامة وملحا على ذلك؟..

إن عدم حماسة أبو بكر لهذا الأمر تدل على أن المراد بالجمع شئ آخر. فلو

كانت المسألة تتعلق بمستقبل الكتاب الذي ورثه الرسول ما تردد أبو بكر لحظة واحدة فهذه مسألة لا تحتاج إلى تردد كما لا تحتاج إلى تذكير من أحد فضلا عن الالحاح. إلا أن ما يبدو أن هذا الجمع كان وراءه هدف آخر..

ولا يعقل أن يقوم أبو بكر بتكليف زيد بن ثابت بقوله: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبع القرآن فاجمعه.. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره..
فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله. ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر (٥).

لا شك أن مثل هذه الطريقة في جمع القرآن تثير الشك من حوله وتدفع إلى القول بتحريفه وهي لا بد وأن ينتج عنها نسيان شئ من آياته أو تبديل آية مكان آية. فإنما المتصدي للجمع هو بشر. وقد دفعهم هذا إلى ضرورة وجود شاهدين لإثبات صحة الآية (٦)..

وبالتأمل في كيفية الجمع يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- أن متتبع القرآن هو زيد وحده..
- أن آيات القرآن كانت متفرقة بين العسب واللخاف وصدور الرجال..
- أن آخر سورة التوبة كانت في حوزة خزيمة وحده..
- أن القرآن بعد جمعه استقر عند أبي بكر ثم عمر ثم حفصة..

وأمام هذه النتائج تطرح التساؤلات الآتية:

هل يكفي زيد وحده للقيام بمهمة جمع القرآن؟.

ولماذا لم يقم أبو بكر أو عمر بهذه المهمة؟.

وما هو سر تواجد آخر آيات التوبة بحوزة خزيمة وحده؟.

هل هذا يعني أن القرآن كانت توزع آياته على الصحابة بحيث تكون هناك آية عند صحابي لا توجد عند آخر؟.

وأين ما حفظ أبو بكر وعمر من هذا القرآن؟.

ولماذا احتفظ أبو بكر بالقرآن عنده بعد جمعه ولم ينشره في الأمة؟..

ولماذا سار عمر على نفس السياسة؟.

وما قيمة أن يستقر المصحف في النهاية عند حفصة؟.

ثم أين دور الإمام علي في كل هذا وقد كان من كتاب الوحي؟.

إن تبني هذه الرواية يعني أن الجمع لم يكن الهدف منه الحفاظ على القرآن ونشره بين المسلمين فذلك لم يحدث. فالأمة لم تستفد من هذا الجهد الذي بذل في الجمع ولم تر هذا المصحف ومثل هذا الموقف كان من الممكن أن يدفع بالمسلمين من الصحابة وغيرهم إلى الثورة والصدام مع أبي بكر لاحتكاره القرآن بعد جمعه. إلا أن شيئا من هذا لم يحدث. والسبب في ذلك واضح وضوح الشمس وهو أن القرآن كان موجودا أو مجموعا عند كثير من الصحابة..

إذن الفهم الوحيد الذي يمكن استنباطه من هذه الرواية هو أن الجمع الذي قام به أبو بكر كان جمعا خاصا به وبنهجه ولم يكن جمعا عاما للأمة..

وكان لا بد من هذا المدخل لفهم حقيقة الدور الذي لعبه عثمان تجاه القرآن..

يروي فقهاء القوم أن عثمان لما أراد جمع القرآن أرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان (٧)..

وفي رواية: فأرسل إليها عثمان فأبت أن تدفعها حتى عاهدها ليردنها إليها (٨)..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أرسل عثمان يأخذ مصحف حفصة.

هل هذا يعني أنه لا توجد مصاحف سواه بالمدينة؟ وإذا كان هو المصحف الوحيد فمن أين جاءت المصاحف الأخرى التي انتشرت في الأمصار؟ ولماذا رفضت حفصة أن تدفعه إليه إلا بميثاق؟ إن وجود مصاحف الأمصار يدل على وجود مصاحف أخرى بالمدينة فهي التي خرجت منها المصاحف للأمصار. وهذا يشير إلى أن الصحابة كانت لديهم مصاحفهم الخاصة بهم والتي أخذوها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم))..

ومن هنا يتبين لنا أن هناك مصاحف أخرى غير المصحف الذي بحوزة

حفصة. لم يتجه إليها عثمان واتجه إلى مصحف حفصة خاصة..

ثم لما أتم عثمان نسخ صورة من مصحف حفصة رد الصحف إليها وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخ رجاله وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق (٩)..

وبهذا يكون ما أقدم عليه عثمان هو جمع الأمة على مصحف حفصة الذي قام بجمعه أبو بكر والتخلص من المصاحف الأخرى التي بحوزة الصحابة..

وهنا يطرح سؤال: ماذا كان من المصاحف الصحابة استفز عثمان ودفعه إلى إحراقها؟ إن الإجابة على هذا السؤال تدعونا إلى استعراض مصاحف الصحابة.

ـ مصاحف الصحابة.

كان هناك مصحف خاص بالإمام علي. كما كان هناك مصحف لأبي بن كعب وابن عباس وابن مسعود. وتعد هذه أشهر المصاحف التي كانت موجودة بحوزة الصحابة حتى عهد عثمان..

وكان مصحف الإمام علي مرتبا ترتيبا زمنيا ويبدأ بسورة أقرأ ويتكون من سبعة أجزاء:

الأول جزء من سورة البقرة حتى سورة البينة..

والثاني يبدأ من سورة آل عمران وينتهي بسورة قريش.

والثالث يبدأ بسورة النساء وينتهي بسورة النمل.

والرابع يبدأ بسورة المائدة وينتهي بسورة الكافرين..

والخامس يبدأ بسورة الأنعام وينتهي بسورة التكاثر..

والسادس يبدأ بسورة الأعراف وينتهي بسورة النصر..

والسابع يبدأ بسورة الأنفال وينتهي بالمعوذتين..

أما مصحف أبي بن كعب فكان يبدأ بالفاتحة وينتهي بسورة الناس على خلاف في ترتيب السور التي بلغ عددها في مصحفه (١٠٥) سورة..

ومصحف ابن مسعود يحتوي على (١٠٨) سورة ليس من بينها الفاتحة أو

المعوذتان ومصحف ابن عباس يبدأ بسورة اقرأ ويحتوي على (١١٤) سورة..

ومثل هذه المصاحف لم تكن تضر المسلمين في شئ فقد كانت مقسمة ومرتبة باجتهاد الرجال الذين دونوها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). إلا أن ما استفز عثمان فيها هي تلك التفسيرات التي كانت تبدد الكثير من الظنون والأوهام حول كثير من نصوص القرآن. أما مصحف حفصة فلم يكن فيه شئ من هذه التفسيرات كما أن ترتيب سوره مختلف عن بقية المصاحف الأخرى..

ولا شك أن تجريد المصحف من هذه التفسيرات من شأنه أن يزيد من غموض القرآن وصعوبة فهم نصوصه ويفتح بابا للخلاف حول تفسير هذه النصوص مما يؤدي إلى الفرقة بين المسلمين وهو ما وقع. وإذا كان هدف عثمان من حرق المصاحف هو وحدة المسلمين ونبذ الخلاف فإن هذا الهدف لم يتحقق بإلزام الأمة بمصحفه فقد ثار على عثمان كثير من الصحابة على رأسهم ابن مسعود الذي رفض الاعتراف بمصحف عثمان وأنكره (١٠)..

يروي البخاري: خطبنا ابن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)) بضعا وسبعين سورة. والله لقد علم أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم.
قال شفيق - الراوي - فجلست في الحلق أسمع ما يقولون فما سمعت رادا يقول غير ذلك (١١)..

وفي رواية أخرى يقول ابن مسعود: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت. ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت. ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه (١٢)..

ومثل هذا الموقف من ابن مسعود إنما تبناه بعد حركة عثمان حيث أعلن رفضه لها من فوق منبر الكوفة ولم يعارضه في ذلك أحد كما هو واضح من الرواية. فإذا تبين لنا أن ابن مسعود لم يكن من بين الذين استعين بهم في جمع القرآن في عهد أبي بكر أو عهد عثمان فهذا أمر يكشف لنا مدى عمق موقف ابن مسعود وأهميته. وهو يشير من جهة أخرى إلى أن المسألة أكبر بكثير من مسألة القراءات التي يحاول القوم أن يوحوا بها إلينا كمبرر وحيد لحركة عثمان. تتضح الرؤيا بصورة أكثر وضوحا

عند استعراض الروايات الأخرى التي جاءت على لسان ابن مسعود في تلك الفترة..

يروي أبو داود والنسائي: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: قال سبحانه (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) غلوا مصاحفكم. وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (١٣)..

ويروي ابن حجر: لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال من استطاع أن يغل مصحفه فليفعل أفأترك ما أخذت من رسول الله (١٤)..

وفي رواية يقول ابن مسعود: إني غال مصحفي فمن استطاع أن يغل مصحفه فليفعل (١٥)..

وفي رواية: والله لا أدفعه - يعني مصحفه - لعثمان - أقرأني رسول الله (١٦)..

ومعنى الغل المقصود من قول ابن مسعود هو قول مستنبط من الآية المذكورة التي تتحدث عن الغل أي إخفاء الغنيمة في الحرب وحجزها عن التقسيم الشرعي. ويقصد ابن مسعود بقوله: غلوا مصاحفكم أي أخفوها حتى لا تصل إلى عثمان فتحرق..

ويحاول القوم التقليل من ابن مسعود والتمويه على موقفه باختراع رواية تفيد أنه كره عمل عثمان وأنه اتفق معه في النهاية. أي أن الموقف لم يخرج عن حدود الكراهية. وفوق هذا هم يصورون ابن مسعود بأنه لم يكن حافظا للقرآن وأن هناك من هو أعلى منه في هذا المقام فمن ثم لا يعتد بقوله ولا يؤخذ بموقفه..

يقول ابن حجر: وكان ابن مسعود لما حضر مصحف عثمان إلى الكوفة لم يوافق على الرجوع عن قراءته ولا على إعدام مصحفه. فكان تأليف مصحفه مغايرا لتأليف مصحف عثمان. ولا شك أن تأليف مصحف عثمان أكثر مناسبة من غيره (١٧)..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: على أي أساس حكم ابن حجر بأن مصحف عثمان أكثر مناسبة من غيره؟.

يروي البخاري أنه جاء رجل من العراق إلى عائشة فقال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك؟ قالت: لم؟ قال لعلي أؤلف القرآن عليه. فإنه يقرأ غير مؤلف.
قالت: وما يضرك آية قرأت.. لقد نزل بمكة وإني لجارية ألعب. قال:
فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور (١٨)..

ومثل هذه الرواية إنما الهدف منها ضرب مصحف ابن مسعود. فهذا الرجل القادم من العراق مقر ابن مسعود ومركز دعوته بشأن المصحف - يطلب من عائشة مصحفها إنما يعني أنه يتشكك في مصحف ابن مسعود الذي تشير الرواية إلى أنه غير مؤلف أي مجموع. فإذا أخذنا بصحة هذه الرواية فإن هذا يعني أنه كان هناك مصحف آخر خاص بعائشة غير مصحف حفصة ومصحف عثمان وضرب خصومه فأكثروا الشكوك من حوله وزادوا الطين بلة إذ أضافوا إلى المصاحف الموجودة مصحفا آخر هو مصحف عائشة وفي هذا إدانة لعثمان كونه لم يعتمد على هذه المصاحف حتى مصحف عائشة في عمله الذي قام به. كما أنا لم نسمع أن مصحف عائشة أحرق مع المصاحف التي تم إحراقها..

ويروي البخاري سئل ابن عباس: أترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من شئ؟ قال ما ترك إلا ما بين الدفتين. وسئل محمد بن الحنفية فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين (١٩)..

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله: وليس المراد أنه ترك القرآن مجموعا بين الدفتين لأن ذلك يخالف ما تقدم من جمع أبي بكر ثم عثمان. وهذه الترجمة للرد على من زعم أن كثيرا من القرآن ذهب لذهاب حملته. وهو شئ اختلقه الروافض لتصحيح دعواهم أن التنصيص على إمامة علي واستحقاقه الخلافة عند موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ثابتا وأن الصحابة كتموه وهي دعوى باطلة لأنهم لم يكتموا مثل (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) وغيرها من الظواهر التي قد يتمسك بها من يدعي إمامته. كما لم يكتموا ما يعارض ذلك أو يخصص عمومه أو يقيد مطلقه. وقد تلطف المصنف - أي البخاري - في الاستدلال على الرافضة بما خرجه عن أحد أئمتهم الذي يدعون إمامته وهو محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب. فلو كان هناك شئ ما يتعلق بأبيه لكان هو أحق الناس بالاطلاع عليه. وكذلك ابن عباس فإنه ابن عم علي وأشد الناس له لزوما

واطلاعا على حاله. ولا يرد على هذا قول علي: ما عندنا إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة. لأن عليا أراد الأحكام التي كتبها عن النبي ولم ينف أن عنده أشياء أخرى في الأحكام التي لم يكن يكتبها. وأما جواب ابن عباس وابن الحنفية فإنما أرادا من القرآن الذي يتلى أو أرادا مما يتعلق بالإمامة أي لم يترك شيئا يتعلق بأحكام الإمامة إلا ما هو بأيدي الناس. ويؤيد ذلك ما ثبت عن جماعة من الصحابة من ذكر آيات نزلت من القرآن فنسخت تلاوتها وبقي حكمها أو لم يبق مثل حديث ابن عمر: والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وحديث أنس في قصة القراء الذين قتلوا في بئر معونة. قال فأنزل الله فيهم قرآنا (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا)..

وحديث أبي بن كعب كانت سورة الأحزاب قدر البقرة..

وحديث حذيفة ما يقرءون ربعها أي سورة براءة..

وكلها أحاديث صحيحة. وقد أخرج ابن الضريس من حديث ابن عمر أنه كان يكره أن يقول الرجل قرأت القرآن كله. ويقول إن منه قرآنا قد رفع وليس في شئ من ذلك ما يعارض الرواية - التي نحن بصددها أي ما ترك إلا ما بين الدفتين - لأن جميع ذلك مما نسخت تلاوته في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢٠)..

ومن كلام ابن حجر نخرج بالملاحظات التالية:

* أن ابن حجر حاول لي عنق النص بحيث لا يفهم منه أن الرسول ترك القرآن كاملا ومجموعا حتى لا يصطدم هذا الفهم بما قام به أبو بكر وعثمان بشأن القرآن..

* ينفي ابن حجر وجود مصحف قبل مصحف أبو بكر..

* يعتبر ابن حجر أن عمل أبي بكر هو الذي يجب أن يخضع له مفهوم النص لا العكس..

يناقض ابن حجر نفسه بقوله أن النص يرد على من زعم أن كثيرا من القرآن ذهب لذهاب حملته. إذ قوله هذا يعني أن القرآن كان مجموعا وموجودا

بحيث لا يكون هناك مجال لأصحاب الشبهات للطعن فيه. في حين أنه ينفي وجود هذا الجمع ويربطه بأبي بكر..

* أن هناك الكثير من النصوص التي تثبت وجود آيات من القرآن لم تدون فيه..

* أن الشيعة الذين يسميهم ابن حجر بالروافض لا يدعون أنه كانت في القرآن آيات خاصة بإمامة علي وكتمها الصحابة...

* أن أهل السنة رووا الكثير من الأحاديث الخاصة بآل البيت وبالإمام علي خاصة ولم يكتموها لكنهم شككوا فيها وأولوها على غير مرادها بهدف صرف المسلمين عن آل البيت (ع)..

* أن احتجاج البخاري بكلام ابن عباس أو ابن الحنفية على الشيعة إحتجاج مردود عليه إذ أن من السهولة اختلاق الروايات التي تدين الشيعة على لسان أئمتهم وهناك أمثلة كثيرة في البخاري وغيره على اختلاق الروايات على لسان الإمام علي نفسه والتي تدين أشياعه وتزكي خصومه. والعبرة بصحة هذه الروايات وثبوتها..

* أن الشيعة لم تدع يوما أن محمد بن الحنفية يعد إماما من أئمتهم كما يدعي ابن حجر..

* إن ابن حجر قام بلي عنق النص الوارد عن علي: ما عندنا إلا كتاب الله. وحصر مراد علي من قوله في حدود أحكام النص الوارد عن النبي. وكأنه يقول بهذا أن عليا لم يكتب القرآن كله عن الرسول وإنما دون آيات الأحكام فقط..

* أن ابن حجر حصر مراد ابن عباس وابن الحنفية من قولهما: ما نزل إلا ما بين الدفتين في حدود ما يتلى من القرآن. أو في حدود ما يتعلق بالإمامة وفي هذا إشارة إلى أن القرآن المشار إليه ليس كاملا وإنما هي مجموعة من آياته فقط.

* أن ما ذكره ابن حجر بخصوص الآيات التي رفعت وتم نسخها إنما يعتمد على روايات صحيحة بزعمه. ولكن هل يمكن أن تنسخ آية أو ترفع بناء على رواية؟..

أو السؤال بصيغة أخرى: هل يمكن أن نقدم الأحاديث على القرآن؟..

إن القوم قد عكسوا الأمور وأتوا بما يناقض الشرع والعقل إذ جعلوا الروايات هي التي تحكم على نصوص القرآن. فترفع آية. وتنسخ آية حكما وتلاوة. وتنسخ آية حكما وتبقيها تلاوة. وتنسخ آية تلاوة وتبقيها حكما. هذا بالإضافة إلى الروايات التي تقول بنقصان سور القرآن والتي ذكرها ابن حجر. وكل ذلك لا يجوز في حق القرآن.. وقد نسي ابن حجر ملاحظة هامة من وراء مثل هذه الأسئلة التي وجهت لابن عباس وابن الحنفية والإمام علي حول ما ترك الرسول. فإن هذه الأسئلة في حد ذاتها إنما تشير إلى أن هناك اتجاها يقول بأن الرسول ترك شيئا خاصا وأن السائلين يحاولون التقصي عن الحقيقة. فهي أسئلة لم تنسج من فراغ..

وأهم ما يمكن أن نستنتجه من خلال رواية ابن عباس وابن الحنفية هو أن كلا منهما كان لديه مصحف. وهذا وحده كاف لإبطال دعاوى ابن حجر وغيره من فقهاء القوم الذين يحاولون رفع مقام أبو بكر وعمر بربطهما بجمع القرآن..

ومرة أخرى نقول: لماذا لم يستعن عثمان بهذه المصاحف؟.

ولماذا لم يستعن بمصحف الإمام علي؟.

ـ ترتيب القرآن .

من خلال ما سبق تبين لنا أن مصحف عثمان يختلف عن مصاحف الصحابة. وأن الصحابة عارضوه وعلى رأسهم ابن مسعود وربما الإمام علي غير أن روايات القوم لا تؤكد ذلك إنما تؤكد العكس وهو أن الإمام عليا تعاون مع عثمان في مصحفه وأثنى على فعله (٢١).

ومن الطبيعي أن يظهر القوم أية صورة من صور الخلاف بين الإمام علي وعثمان حول المصحف فإن ظهور مثل هذا الأمر ليس في صالح عثمان ولا في صالح مصحفه وليس في صالح الخط الذي ساد من بعد الرسول..

ونظرا لكون المصاحف تختلف فيما بينهما حول ترتيب السور فسوف نناقش هنا مسألة الترتيب هل هي توفيقية - أي موحى بها - أم اختيارية؟.

في رواية عائشة السابقة قالت للعراقي السائل: وما يضرك أية آية قرأت؟.

وفي هذا التصريح إشارة إلى أن مسألة الترتيب مسألة اختيارية..

وينقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: لا نعلم أحدا قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها (٢٢)..

ونقل أن ترتيب السور اجتهادي وليس بتوقيف من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو قول الجمهور واختاره القاضي الباقلاني قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التعليم فلذلك اختلفت المصاحف فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن (٢٣)..

وينقل عن الباقلاني قول أيضا: يحتمل أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أمر بترتيبه هكذا. ويحتمل أن يكون من اجتهاد الصحابة. ثم رجح الأول (٢٤)..

ويقول ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعض أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيا وإن كان بعضه من اجتهاد بعض الصحابة (٢٥).

ويروي أحمد والنسائي والترمذي والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المبين فقرنتموهما بهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله كثيرا ما ينزل عليه السورة ذات العدد فإذا نزل عليه الشئ - يعني منها - دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بها فظننت أنها منها وقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها (٢٦)..

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية بقوله: فهذا يدل على أن ترتيب الآيات في كل سورة كان توقيفيا ولما لم يفصح النبي بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادا منه (٢٧)..

وعلى ضوء الرواية السابقة يمكن القول أنه إذا كان الرسول (صلى الله عليه

وآله وسلم) يقول ضعوا هذه الآية في سورة كذا فمعنى ذلك أنه كان يشرف بنفسه على جمع القرآن وترتيبه. وهذا يعني أن الرسول قد ترك القرآن مرتبا مجموعا.

إذن ماذا كان يفعل أبو بكر وماذا فعل عثمان؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يموت الرسول دون أن يبين موضع سورة براءة؟.

إن مثل هذه الحيرة أوقعت ابن حجر في تناقض فعلى الرغم من تبنيه فكرة أن الترتيب توقيفي بأمر الرسول لم ينف عن عثمان اجتهاده في ترتيب براءة وراء الأنفال وأقر فعله وهو بهذا يدين أبا بكر وعثمان لتدخلهما في أمر القرآن بما يخالف ما ترك الرسول وأمر الترتيب لا يمكن إلا أن يكون اختيارا وهو ما فتح الباب لعثمان ليرتبه على طريقته. ولو كان توقيفيا ما استطاع عثمان أن يقوم بعمله هذا ولأعتبر فعله تحريفا صريحا للقرآن وما كان وافقه على ذلك أحد بل ما كان جرؤ على ذلك من الأصل..

يروي البخاري أن جبريل كان يعرض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القرآن كل عام مرة. فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه (٢٨)..

وهذه الرواية تعارض كل ما صنع القوم وتجعلنا بين أمرين..

إما أن نقف إلى جوار أبي بكر وعثمان ونتبنى مصحفه..

وإما أن ننكر هذه الروايات التي تدعم موقفهما وبالتالي سوف نرفض مصحف عثمان. فهذه الرواية تؤكد أن القرآن كان موضع اهتمام جبريل والرسول حتى قبض. وليس هناك مجال لأحد من بعد الرسول كي يبذل جهدا فيه. فهو كامل مجموع وموجود..

من هنا بدأت الأبصار تتجه إلى حقيقة حاول القوم إخفاءها وهي ضرورة أن يكون الرسول قد ورث القرآن مجموعا كاملا لواحد من صحابته تتوافر به صفات حفظه ورعايته وإيصاله إلى الناس بأمانة..

ومن بين صحابة النبي لا يوجد من تتوافر به هذه الصفات سوى الإمام علي.

ومنذ أن توصلت لهذه الحقيقة فهمت سر الربط الذي ربطه الرسول بين القرآن والعترة. فهذا الربط إنما يوحي بشئ محدد وهو أن القرآن عند هؤلاء العترة وليس عند سواهم وعندما تغيب فكرة العترة من ذهن المسلم تغيب عنه حقيقة القرآن

ويسقط فريسة للحيرة والشك وسط هذا الكم من الروايات المتناقضة حول القرآن..

ولو كانت فكرة آل البيت (ع) واضحة من خلال القرآن الذي جمعه عثمان ما تمكن بنو أمية من ضربهم وعزلهم عن الأمة ومحو علومهم..

لو كانت فكرة آل البيت واضحة ما ظهرت كل هذه الرموز الفقهية التي استعان بها الخط الأموي في إثبات مشروعيته.

وما ظهرت هذه الروايات الباطلة التي استثمرت في التمويه على القرآن ودعم الحكام والتفريق بين آل البيت وبين المسلمين.

إن تجريد المصحف من التفسيرات المنقولة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإضافة إلى ترتيبه هذا الترتيب المغرض من قبل عثمان قد شكل أكبر دعم لبني أمية ولسائر الحكام من بعدهم فلولا عثمان ومصحفه ما قامت لبني أمية قائمة وما ساد الخط الذي ابتدعوه وسيروا الأمة على أساسه..

لقد كان الهدف من عمل عثمان هو التمويه على مصحف قائم وموجود وهو مصحف آل البيت الذي تناوله الصحابة من الإمام علي ودفع المسلمين إلى هجره..

هوامش

---

(١) أنظر البخاري كتاب فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف.

(٢) أنظر فتح الباري شرح البخاري (ج ٩ / ٢٣) وما بعدها.

(٣) البخاري كتاب فضائل القرآن. باب جمع القرآن.

(٤) من هذه النصوص قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (تعاهدوا القرآن).. وقوله: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وقوله لابن عمر: (في كم تقرأ القرآن).. وقوله: (اقرؤا القرآن).. أنظر البخاري. وتأمل حديث الثقلين: كتاب الله وعترتي.

(٥) أنظر البخاري كتاب فضائل القرآن. باب جمع القرآن.

(٦) كان أبو بكر وعثمان يستشهدان شاهدين على الآيات المختلف عليها في القرآن أنظر فتح الباري (ج ٩) كتاب فضائل القرآن.

(٧) المرجع السابق.

(٨) أنظر كتاب تاريخ القرآن للزنجاني وعبد الصبور شاهين وكتب تاريخ القرآن.

(٩) أنظر فتح الباري (ج ٩) والمراجع السابقة.

(١٠) فتح الباري (ص ٤٨).. باب القراء من أصحاب النبي. وقد سمى القوم عثمان حراق المصاحف.

(١١) البخاري كتاب فضائل القرآن. باب القراء من أصحاب النبي.

(١٢) المرجع السابق.

(١٣) أنظر فتح الباري (ج ٤٨٩).

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) المرجع السابق (ص ٤٠)

(١٨) البخاري باب تأليف القرآن.

(١٩) البخاري باب من قال لم يترك النبي إلا ما بين الدفتين. والدفتان أي اللوحان وهذا يعني أن المصاحف كانت مكتوبة.

(٢٠) فتح الباري (ج ٩ / ٦٥).

(٢١) يروي القوم على لسان الإمام علي قوله: لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل. أنظر كتب تاريخ القرآن.

(٢٢) فتح الباري (ج ٩ / ٤٠) باب تأليف القرآن.

(٢٣ - ٢٧) المرجع السابق (ص ٤٢).

(٢٨) البخاري باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي.

الخاتمة

إن حالة المعاناة الفكرية التي عشتها في دائرة الطرح السني كانت تدفعني على الدوام إلى ضرورة استنباط مجموعة من القواعد التي تعين المسلم على معرفة الحق وحل الإشكالية بين النص والرجال أو بين الدين والتراث.

ولقد حوى هذا الكتاب هذه القواعد بين سطوره وموضوعاته ورأينا من الأجدى أن نستخلصها في هذه الخاتمة إتماما للفائدة.

وهذه القواعد هي:

* أن الحق ينحصر في القرآن.

* أن الأحاديث النبوية يجب أن تخضع للقرآن.

* أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يفعل ولا يقول ما يخالف القرآن.

* أن الإمام عليا هو مقياس الحق.

* أن التراث حادث على النص.

* أن النص فوق الرجال.

* أن الحق يعرف بالنص.

* أن إعمال العقل في النص واجب شرعي.

* أن الصحابة ليسوا عدولا.

إن اعتبار القرآن هو الأساس الذي ينبني عليه الإسلام وهو مصدر الحق الوحيد الذي لا تشوبه شائبة والذي يجب أن تخضع له النصوص النبوية.

وأن الإعتقاد بأن دور الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو التبليغ والتبيين لا الإضافة أو المخالفة للقرآن.. وإن اعتبار الإمام علي وآل البيت هم الفئة المختارة والمنتقاة لإمامة الأمة من بعد الرسول. وأن التفريق بين الدين والتراث وبين النص والرجال واعتبار الرجال يعرفون بالحق وأن نقض فكرة العدالة والقداسة التي ارتبطت بالصحابة. وذلك كله مقدمة أساسية للوصول إلى الحق بدونها سوف يضل المسلم طريقه ويل رهينة لأقوال الرجال مكبلا بأغلال التراث متعبدا بالرأي لا بالنص.

إن واقع المسلمين ليشهد بمدى حالة التيه التي يعيشها المسلمون في ظل الأطروحة الإسلامية السائدة. تلك الحالة التي فرخت ولا تزال تفرخ جماعات وتيارات وأفكارا مزقت الصف الإسلامي ودعمت الفرقة والتناحر بين المسلمين.

وإن ظهور مثل هذه الأفكار والتصورات العقيمة السائدة في الوسط الإسلامي اليوم والتي تظهر الإسلام والمسلمين بمظهر التخلف والعداء للواقع والعلم يشهد بذلك أيضا.

وما كان ذلك كله إلا نتيجة لغياب النص وسيادة أقوال الرجال.

صدر المولف :

ـ الحركة الإسلامية في مصر : روية واقعية لمرحلة السبعينات . .

ـ الحركة الإسلامية في مصر : واقع الثمانينات .

ـ الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية .

ـ مذكرات معتقل سياسي : ثلاث سنوات تحت التعذيب .

ـ حركة آل البيت (ع) .

ـ الشيعة في مصر : من الإمام علي الى الإمام الخميني .

ـ عقائد السنة و عقائد الشيعة : التقارب و التباعد .

ـ مصر و إيران : صراع الأمن و السياسة .

ـ فقهاء و النفط . . . .

ـ السيف والسياسة في الإسلام : الصراع بين الإسلام النبوي و الإسلام الأموي .

مذكرات عربجي : وجه مصر في العشرينات .

تحت الطبع

ـ فقه الهزيمة : دراسة في أصول الفكر السلفي .

ـ احاديث اخترعتها السياسة .

ـ شهداء الرأي في التأريخ الإسلامي .

ـ مصارع الحكام في تاريخ الإسلام .

ـ الأزهر و الحكام .

ـ أصل الشيعة و أصولها (تحقيق) .

ـ العقل المسلم : بين اغلال السلف و أوهام الخلف .

ـ السلفيون و الشيعة .

الفهرس